تمهيـــــــــــــد

فى الفصول الأربعة التالية أربع دراسات عن الجاهلية العربية: فأما الفصل الأول منها فعن صورة حياة الجاهليين كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم بالاستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله. ولا ريب فى أن القرآن هو المصدر الذى يعلو على كل مصدر آخر فى الكلام عن الجاهليين وحياتهم. وهذا الفصل هو بمثابة المِهَاد التاريخى والاجتماعى للفصول الثلاثة الأخرى، التى يعالج أولها الأمثال فى ذلك العصر معالجة لغوية وتاريخية، مع التعرض لبحث المدى الذى يمكن أن نثق فيه بتلك الأمثال، وهل هى فعلا قيلت فى ذلك العصر أوْ لا. وقد استمددتُ الأمثال التى أوردتُها فى هذا الفصل من كتاب "جمهرة الأمثال" لأبى هلال العسكرى (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش). كما يعالج ثانيها ما يسمَّى بـ"سجع الكُهّان"، وهى الأقوال التى كان الكهّان العرب قبل الإسلام يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارتهم فى رُؤْيَا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومةٍ يبغى وَضْع حَدٍّ لها، أو منافسةٍ بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبلية يراد حسمها... إلخ، وهى أقوال كان الكهان يتعمَّدون أن تكون مسجوعة وغامضة بحيث تقبل أكثر من معنى على ما سوف يأتى بيانه تفصيلا فيما بعد، وإن كنتُ قد شككتُ فى كثير منها لأسبابٍ ارتأيتها حسبما سيرى القراء فى حينه. وثالث تلك الفصول مخصَّص للخطابة الجاهلية ونصوصها التى وصلتنا، والمقاييس التى يمكننا

التعويل عليها فى فرز صحيحها من زائفها. وقد كان معتمَدى فى الفصلين الأخيرين بالدرجة الأولى على المجلد الأول من كتاب "جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة" للمرحوم أحمد زكى صفوت. كما رجعتُ بطبيعة الحال إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من الكتب التى سبقتنى إلى معالجة هذه القضايا، وناقشتُ ما جاء فيها، وقلّبته على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه، وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئا جديدا حتى لو كان هذا الجديد هو الزاويةَ التى أنظر منها إلى القضية رَهْن المعالجة، أو النكهةَ التى أعرضها بها. وأرجو أن يكون الفصل الأول من هذه الفصول الأربعة شيئا جديدا فعلا، أو على الأقل لم يسبق لأحد أن عرض ما جاء فيه على هذا النحو.

وهذه الفصول أضعها بين يدى القارئ راجيًا من الله تعالى أن تكون ذات نفع للباحثين فى الأدب الجاهلى من عرب ومستعربين وأن تسد ثغرة فى دراسة النثر العربى قبل الإسلام والأوضاع الاجتماعية والدينية فى ذلك العصر. وقد عملتُ على ضبط أكبر عدد ممكن من الألفاظ فى هذه الفصول على عادتى فيما أؤلف من كتب وأبحاث منذ فترة طويلة حرصًا منى على القراءة السليمة، وهو ما أرهقنى جدا كما يعرف كل من يعالج الرَّقْم على الكَاتُوب. وأحب أن أَلْفِت نظر القراء الكرام إلى أن الياء النهائية فى الكلمات هنا لم تَجْرِ على وتيرة واحدة، بل كُتِبَتْ بطريقتين: فما كتبتُه بنفسى لم أضع تحت ياءاته المتطرفة نقطتين اتباعًا للنهج المصرى فى هذا السبيل، أما

ما كان موضوعًا تحت هذا الضَّرْب من ياءاته نقطتان فهو منسوخ من النصوص الموجودة على المشباك، وليس الأمر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعل ما سيُكْتَشَف من أخطاء فى هذا الكتاب لا يكون من الكثرة ولا من الخطورة بحيث يُزْرِى بى وبما أكتب لدى الباحثين، والله المستعان!

صورة المجتمع الجاهلى فى القرآن

كان عرب الجاهلية فى عمومهم يعبدون آلهة متعددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإله واحدا، وعندما جاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقى منهم التكذيب والعنت الشديد، وأخذ الأمرُ منه زمنا طويلا حتى اقتنعوا أخيرا بما جاءهم به. بل إنه،

بعد أن أنفق فى الدعوة بمكة ثلاث عشرة سنة بذل فيها كل جهد ممكن وغير ممكن وتعب تعبًا بالغًا، لم يؤمن به إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهل مكة إلى الهجرة إلى يثرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعوية، وانتهى الأمر بأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسب. وكانوا فى بداءة الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهاجم الأوثان ويغضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشركو مكة فى قتله أو فى حبسه لولا أن نبهه الله سبحانه وأمره بترك موطنه والنزوح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الدعوة الجديدة أكثر توفيقا: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال/ 30). ومما نزل من الوحى فى هذا الموضوع قوله تعالى: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ" (ص/ 5- 6).

وسبب نزول هاتين الآيتين، على ما ترويه كتب أسباب النزول والتفاسير، أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شَقَّ ذلك على قريش فأَتَوْا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاسْتَحْضَرَ أبو طالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذِكْر آلهتنا (أى اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، وندَعك وإلهك. فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أمُعْطِيّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتَدِين لكم

بها العجم؟ فقالوا: نَعَمْ، وعَشْرًا. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكّتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لَشَيْءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٌ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٌ يُطلب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلّثون. ما هذا إلا كذبٌ اختلقه محمد. وهناك خبر آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئا يخالف اعتقاداتهم بشأنها. وخلاصته، كما جاء عند الواحدى فى "أسباب النزول"، أن "خمسة نفر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائْتِ بقرآن ليس فيه تَرْك عبادة اللات والعُزَّى". وجاء أيضا فى ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططًا وقالوا: متِّعْنا باللات سَنَةً، وحَرِّمْ وادينا كما حَرَّمْتَ مكة: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد تتالت الآيات التى تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد، لكنّ تشبُّثهم بما فى رؤوسهم كان

عنيفا، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد في القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" (الأنعام/ 151)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ 18)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" (مريم/81)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ 3)، "وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/51)... إلخ. وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمر ونزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" (العنكبوت/61)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (العنكبوت/ 63)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (الزخرف/ 9). ومع ذلك فــ"إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* ويَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ" (الصافّات/ 35)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" (الزمر/43- 45)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه وأنهم هم الذين يقرّبونهم إلى الله زُلْفَى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ 18)، "مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر/ 3).

وكان القرآن الكريم ينبههم دائما أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئا من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هي لله وحده، ليس للأوثان منها أىّ نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" (الأنعام/ 93- 94)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ 18)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ 3)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (الروم/ 12- 13)، "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ* قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزُّمَر/43).

وكان من أوثانهم اللات والعُزَّى ومناة، وقد تهكم القرآن على شركهم وعقليتهم المتخلفة التى تسوِّل لهم أن هذه الأوثان هى بنات الله: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى" (النجم/ 19- 21). وتناول المفسرون اللاَّت والعُزَّى ومناة

فقالوا إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما زعمه الزاعمون من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتّ عندها السمن بالسَّويق بالطائف ويُطْعِمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا، أما العُزّى فكانت لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَةٍ، وبَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليها بعد الفتح خالدَ بنَ الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهى واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: تلك العُزّى، ولن تُعْبَد أبدا، وأما مَنَاة: فصخرة كانت لُهَذْيل وخُزَاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت لثقيف، وكأنها سُمِّيَتْ: "مناة" لأنّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق. وجاء فى "أسباب النزول" للواحدى أن "الأنصار كانوا يحجّون لمناة، وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة".

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت أسبابُ النزول اثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب. يقول الواحدى: " كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة. فزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيَا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة ليُعْتَبَر بهما. فلما طالت المدة عُبِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحوا الوَثَنَيْن". وكان المشركون يقولون إنّ هذه الأصنام هى بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقيل لهم: "ألكُمُ

الذَّكرُ ولهُ الأُنثى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَة الإناث، فأراد الله أن يَلْفِتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتى يكرهونهن بل يقتلونهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكْران!

على أن هذه الأصنام ليست هى وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضا: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنعام/ 100)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء/26- 28)، "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ 40- 41)، "فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافّات/ 149- 158)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ* أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ 15- 19)، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ

مُبِينٌ" (51)، "أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ" (الطور/ 39)، "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى" (النجم/ 27).

وقيل إن المقصود فى آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدوهم قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جِنَّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم) تحقيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ"الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكلّ ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكلّ ما هو ضارّ. وبقريبٍ من هذا فسَّر ابن الكلبى النص القرآنى، إذ قال حسبما نقل الواحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدوابّ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب". وقد حاول الزمخشرى، فى تفسيره لآيات "الصافات"، أن يسوِّغ تسمية الملائكة: "جِنَّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنّ مَنْ خَبُثَ من الجن ومَرَد وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم ونَسُكَ وكان خيرًا كله فهو مَلَك، فذَكرَهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم".

أما أنا فأرى أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أى دليل على أن الجن فى هذه الآية أو فى أى موضع آخر من القرآن المجيد هم الملائكة. وإن فى القول بذلك لَخَلْطًا بين الألفاظ والمفاهيم يفسد تفسير القرآن إفسادا. ثم لماذا يحقِّر القرآن الملائكة، وهم عباد مُكْرَمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون ولا يعرفون معنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سبحانه فى الآية 50 من سورة

"النحل" والآيتين 26- 27 من سورة "الأنبياء"، ولا ذنب لهم فى أن العرب كانوا يشركونهم بالله؟ كما أن قوله تعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ 40- 41) هو أكبر دليل على أن الجن شىء، والملائكة شىء آخر، فها هم أولاء الملائكة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكد فى الوقت ذاته أنهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعنى أن كلا منهما فريق مختلف تماما عن الفريق الآخر. وليس بعد قول لله قول! ثم إن الجن مكلَّفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله فى شىء، مما يدل على أنهم غير داخلين فى التكليف، وإلا لكان منهم المطيعون والعصاة، فضلا عن أن الجن مخلوقون من نار حسبما صرَّح القرآن الكريم، والملائكة ليسوا كذلك. ومعنى قوله تعالى: "وخَرَقوا له بنين وبناتٍ بغير علم" أنهم افْتَرَوْا بجهلٍ فاحشٍ أن له سبحانه بنين وبنات، فقالت اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو مليح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزِّبَعْرَى فى سبب نزول قوله تعالى: "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ". وكان الجن فى نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون فى السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات ، إذ كانوا يَرَوْنَه مستنِدا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات، ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون فى تلك السخرة العذاب المهين: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ

تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/ 14).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التى إذا ما انتهت فقد انتهى كل شىء بالنسبة للإنسان، وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثةٍ تَحْدُث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفْنِى ولا يعيد من يُفْنِيه. وكانوا يجادلون النبى فى ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاما ورُفَاتا، وإلا فأين آباؤهم الأولون؟ ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل؟ وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتى؟ وإن كثرة الآيات التى تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسَخَرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التى تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان: "وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء/ 49- 51)، "وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" (مريم/ 66)، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج/ 5- 7)، "قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" (النمل/ 82- 83)، "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان/ 11)، "وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة/ 10)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سبأ/ 3)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ" (الصافات/ 16- 17)، "إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ* فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان/ 34- 36)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية/ 24- 25)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق/ 3)، "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ* يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (الذاريات/ 10- 12)، "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن/ 7)، "يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ" (النازعات/ 10- 12).

ومما رُوِىَ عن الكفار فى هذا المجال "أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِى هذا بعدما رُمّ؟ فقال صلى

الله عليه وسلم: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار". كما رُوىَ أن عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَريّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أى غيروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه تعنُّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان هذا الرَّئِىُّ الذي يأتيك تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرَّئِىّ) بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعْذَر فيك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون. ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلَّغْتُكم رسالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أَصْبِر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضْنا فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أَضْيَق بلادا ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشا منا. سَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويُجْرِ فيها أنهارًا كأنهار

الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان شيخًا صَدُوقًا، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو؟ فإن صنعتَ ما سألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول". ووجه الشاهد فى الخبر أنهم تحدَّوْه، ضمن ما تحدَّوْه به، أن يأتى لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأسهم جَدّه قُصَىّ بن كلاب، إذ كانوا، كما قلنا، يَرَوْنَ استحالة عودة الميت إلى الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليه أن يُثْبِت ما يقول ويعيد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى!

وثمة خبر فى "أسباب النزول" للواحدى يفسّر سبب نزول قوله عز وجل: "وَأَقسَموا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم لا يَبعَثُ اللهُ مَن يَموتُ"، وفيه أنه "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلَّم به: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لَتُبْعَث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية". وكانوا يتهكمون بما ينزل به القرآن فى أوصاف الجنة والنار، كالذى يُرْوَى عن أبى جهل من أنه "لما ذكر الله تعالى الزَّقُّوم خُوِّف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد...؟ قالوا: لا. قال: التَّمر بالزبد! أمَا والله لئن أمكننا منها لنَتَزَقَّمَنَّها تَزَقُّمًا. فأنزل الله تبارك وتعالى: "وَالشَجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرآنِ وَنُخَوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إلا طُغْيَانًا كَبِيرًا"...". ومن هذا الوادى أيضا ما جاء فى بعض الروايات من أن "خَبَّاب بن الأَرَتّ كان قَيْنًا، وكان يعمل للعاص بن وائل السَّهْمِيّ، وكان العاص يؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أَقْضِيك. فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضيني. فقال العاص: يا خباب،

مالك؟ ما كنتَ هكذا! وإنْ كنتَ لَتُحْسِن الطلب. فقال خباب: ذاك أني كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك. قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا؟ قال خَبّاب: بلى. قال: فأخِّرْني حتى أقضيك في الجنة، استهزاءً. فوالله لئن كان ما تقول حقًّا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شىء من القرآن فى تعداد نِعَم الجنة، ومن ذلك ما ورد فى النص التالى لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لَنَدْخُلَنّها قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَيَطْمَعُ كُلُّ اِمْرِئ مِّنهُم أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلاَّ"...".

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلا قوله تعالى: "إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأنفال/ 19)، أى أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عَزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلها واحدا، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت أكثر من رواية فى ذلك فى تفسير الطبرى فقيل: "كان المشركون حين خرجوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة (أى فى غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهمّ انصر أَعَزّ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". يقول: نَصَرْتُ ما قلتم، وهو محمد

صلى الله عليه وسلم"، وقيل: "استفتح أبو جهل فقال: اللهمّ، أيُّنا (يعني محمدا ونفسه) كان أفْجَرَ لك اللهمّ وأقْطَعَ للرَّحِم فأحِنْهُ (أى أهْلِكْه) اليوم. قال الله: إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". كما نقرأ فى ذات السورة قوله سبحانه: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال/ 32- 33)، وقد جاء فى تفسير الطبرى: "قال رجل من بني عبد الدار يقال له: النضر بن كِلْدَة: "اللّهُمّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الحَقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السّماءِ أو ائْتِنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ". فقال الله: "وَقالُوا رَبّنا عَجّلْ لَنا قِطّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسابِ"، وقال: "وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فرَادَى كمَا خَلَقْناكُمْ أوّلَ مَرّةٍ"، وقال: "سألَ سائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* للْكافِرِينَ...". قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله". أما فى تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما أورد، قول من قال: وما كان الله ليعذّب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد, حتى أُخْرجك من بينهم، وَما كانَ اللّهُ مُعَذّبَهُمْ وهؤلاء المشركون يقولون: يا ربّ غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول... وقوله: وَما لهُمْ ألاّ يُعَذّبَهُمُ اللّهُ؟ (أى) في الآخرة". أى أنهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلب! كما أنهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء فى بعض الأقوال!

ومن عباداتهم كذلك ما ورد فى قول رب العزة: "وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " (الأنفال/ 35)، وتفسيره ما ورد عند شيخ المفسرين: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم

عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللّهِ التـي أَخْرَجَ لِعِبـادِهِ"، فأُمِروا بـالثـياب... كانت قريش يعارضون النبـيّ صلى الله عليه وسلم فـي الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون... كانوا ينفخون فـي أيديهم، والتصدية: التصفـيق". كما أن فى القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (فُصِّلَتْ/ 37).

ولعل القارئ قد تنبه لما جاء فى كلام الطبرى مـن أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة، وإن كنـت أتصور أن يكون بعضهم فقط هـم الـذين يفعلـون ذلـك لا كلهم. وفى تفسير قـوله تعـالى: "يَـا بَنِـي آدَمَ قَـدْ أَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَـاسُ التَّقْـوَى ذَلِـكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِـنْ آيَـاتِ اللَّـهِ لَعَلَّهُـمْ يَـذَّكَّرُونَ* يَـا بَنِـي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّـذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ* وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَـا قُـلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ* قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ كَمَـا بَـدَأَكُمْ تَعُـودُونَ* فَرِيقًـا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُـمُ اتَّخَـذُوا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ* يَـا بَنِـي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِـنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِـيَ لِلَّـذِينَ آمَنُـوا فِـي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الآيَـاتِ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأعراف/ 36ـ 32) يقول الطبرى ما زُبْدَتهُ أنه، جلّ ثناؤه، يبين للجهلة من العرب الذين كانوا يتعَرَّوْن أن لِباس التّقوَى هو الحياء. وقد ابتدأ سبحانه الخبر عن إنزاله اللباس الذي يواري سَوْآتنا والرِّيَاش توبيخا للمشركين الذين كانوا يتجرّدون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار بها في كلّ حال مع الإيمان به واتباع طاعته، إذ كانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقولهم: "نطوف كما ولدتنا أمّهاتنا"، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء فتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه * * فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلّهُ

فعُذِلوا على ما أَتَوْا من قَبيح فعلهم وعُوتبوا عليه،فكان جوابهم: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثلما كانوا يفعلون، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُنّتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهم إن الله لا يأمر بالفحشاء، أى لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومَساويها. أتقولون، أيها الناس، على الله ما لا تعلمون؟ أَتَرْوُون على الله أنه أمركم بالتعرّي والتجرّد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟ لقد كانوا يطوفون عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس.وكانت العرب تطوف بالبيت عراةً إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يُسَمَّوْن في الجاهلية: "الحُمْس"، يقولون: لا نخرج من الحَرَم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عَرَفات، وهي التي كان يُفِيض منها سائر الناس غير

الـحُمْس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الـحُمْس، يقـفون بـالـمزدلفة ويقولون: نـحن قَطِين الله. ثم جعلوا لـمن ولدوا من العرب من ساكنـي الـحِلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فـيَحِلّ لهم ما يحلّ لهم، ويَحْرُم علـيهم ما يَحْرُم علـيهم. وكانت كِنَانة وخُزَاعة قد دخـلوا معهم فـي ذلك، ثم ابتدعوا فـي ذلك أمورا لـم تكن، حتـى قالوا: لا ينبغي للـحُمْس أن يَأْقِطوا الأقِط، ولا يَسْلأوا السَّمْن وهم حُرُم، ولا يدخـلوا بـيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فـي بـيوت الجلد طَوَال إحرامهم. ثم غالَوْا فـي ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الـحلّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الـحلّ فـي الـحَرَم إذا جاءوا حُجّاجًا أو عُمّارًا، ولا يطوفوا بـالبـيت إذا قَدِمُوا أوّل طوافهم إلا فـي ثـياب الـحُمْس، فإن لـم يجدوا منها شيئا طافوا بـالبـيت عراة. فحَمَلُوا العربَ علـى ذلك، وكان مَنْ سواهم يقـفون بعرفة، فأمرهم الله بـالوقوف معهم: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة/ 199). وكان القوم فـي جاهلـيتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتـمعون فـيتفـاخرون بـمآثر آبـائهم، فكانوا يذكرون آبـاءهم فـي الـحج، فـيقول بعضهم: كان أبـي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبـي يضرب بـالسيف، ويقول بعضهم: كان أبـي جَزّ نواصي بنـي فلان. فأمرهم الله فـي الإسلام أن يكون ذكرهم بـالثناء والشكر والتعظيـم لربهم دون غيره، فنزل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/ 200).

وكان الأنصار فـي الـجاهلـية إذا أَهَلّ أحدهم بحجّ أو عُمْرة لا يدخـل دارا من بـابها إلا أن يتسوّر حائطا، وأسلـموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالـى ذكره: "وَلَيْسَ

الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة/ 189)، ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجلُ خلفه وأبى أن يدخل قائلا: يا رسول الله إني أَحْمَس. يقصد أنه مُحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يُسَمَّوْن: "الحُمْس". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأنا أيْضا أَحْمَسُ (أى أنه عليه السلام من قريش)، فادْخُلْ"، فدخل الرجل.

وكان فى تعاملات أهل الجاهلية بغي وطاعة للشيطان، فكان الحَيّ مثلا إذا كان فيهم عُدّة ومَنَعة، فقَتَل عبدُ قومٍ آخرين عبدًا لهم، قالوا: "لا نَقْتُل به إلا حُرًّا"، تعزُّزًا لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت امرأةُ قومٍ آخرين امرأةً لهم، قالوا: لا نَقْتُل بها إلا رجلاً. فأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فنهاهم عن البغي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (البقرة/ 178).

وكان اليتامى يُظْلَمون ولا يُرْحَمون وتُؤْكَل حقوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (الماعون/1- 3)، "فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي

مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" (البلد/ 11- 16)، "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة/ 177)، "كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (الفجر/ 20)، "وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" (الأنعام/ 152، والإسراء/ 34)، "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا* وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا* وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا* وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا* وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (النساء/ 2- 6)، "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء/ 10)، "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" (النساء/ 127).

وبالنسبة للآيات المارّ ذكرها فى صدر سورة "النساء" يقول ابن عطية فى "المحرَّر الوجيز" إنها فى أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين. والآية نَصٌّ في النهي عن قصد مال اليتيم بالأكل والتموّل على جميع وجوهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أَقْسِطوا (أى اعدلوا) في مهورهن، فمن خاف ألا يُقْسِط فلْيتزوجْ ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن في حقوقهن (أى يدافعن عنها ويناضلن دونها). ويقول الثعالبى، فى تفسيره المسمَّى: "الجواهر الحسان فى تفسير القرآن"، إن النهي فى الآية 127 من سورة "النساء" خاصّ بـــ"ما كانت العرب تفعله من ضَمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضْل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل". وفى "أكل التراث" المنهى عنه فى سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المالَ من يقاتل ويحمي الحَوْزَة. وقد أورد ابن عطية حديثًا للنبى صلى الله عليه وسلم عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه: "رأيت أقواما لهم مَشَافِرُ كمشافر الإبل، وقد وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يَجْعَل في أفواههم صخرا من نار تخرج من أسافلهم. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما"، وأورد الزمخشرى ما رُوِيَ من "أنه يُبْعَث آكِلُ مال اليتيم يوم

القيامة والدُّخَان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا".

وكان ثَمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار فى ذلك المجتمع الوثنى، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التى ندَّد بها القرآن مرارا ونهى عنها وشدد فى النهى تشديدا عظيما: "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام/ 137)، "وَلا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" (الأنعام/ 151)، "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" (الإسراء/ 31)، "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (النحل/ 58-59)، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ 16- 18). وفى هذه العادة المتوحشة يقول البغوى، عند تفسير الآيات 58- 59 من سورة "النحل"، إن "مُضَرَ وخُزَاعَةَ وتَمِيمًا كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن وطَمَعٍ غير الأكْفَاء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جُبّةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: "زَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها"، وقد حفر لها بئرا في الصحراء. فإذا بلغ بها البئر قال لها: "انظري إلى هذه البئر"، فيدفعها من

خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض. فذلك قوله عز وجل: "أيمسكه على هُونٍ أم يَدُسّه في التراب؟". وكان صَعْصَعَة عَمُّ الفرزدق (بل جَدّه فى الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً ، يُحْيِيها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر به:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائدا تِ فأحيا الوئيدَ فلم تُوأدِ"

وفى الآية السابعة من سورة "النساء" يطالعنا قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورِّث النساء ويقول: "لا يُوَرَّث إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف"، فنزلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أَوْس بن سُوَيْد وترك لها بنتا، فذهب عَمّ بنيها إلى ألاّ ترث، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العَمّ: "هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألوانا أخرى من الغبن الذى كُنّ يتعرَّضْن له على أيدى الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا* وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء/ 19- 21). وقد علّق الزمخشرى على هذا قائلا: "كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا

ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزُجِروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد. فقيل: "لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تُحَاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت. فقيل: لا يحلّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ولا تَعْضُلوهنّ لتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس والتضييق... "إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ"، وهي النشوز وشَكاسة الخُلُق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرْتم في طلب الخلع... فإن فعلتْ حَلَّ لزوجها أن يسألها الخُلْع... وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"، وهو النَّصَفَة في المبيتِ والنفقةِ والإجمالُ في القول... "وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثمًا مبينًا* وكيف تأخذونه وقد أَفْضَى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقاً غليظا؟". وكان الرجل إذا طَمَحَتْ عينه إلى استطراف امرأة بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل: "وإن أردتم استبدال زوجٍ...". وكانوا يَنْكِحون رَوَابَّهم (أى زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يمقتونه من ذَوِي مروءاتهم، ويسمّونه: "نكاح المَقْت". وكان المولود عليه يقال له: المَقْتِيّ". وفى الطبرى عن ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين". وفى الحديث: "لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية فى نكاحها ومَقْتها".

وبالنسبة لعلاقة الفِرَاش يقول الزمخشرى، تعليقا على قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ 222)، إن "أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فَرْشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفِعْل اليهود والمجوس. فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم. فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أُمِرْتُم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفِعْل الأعاجم".

وكان المجتمع الجاهلى يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعامَلون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيرا، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعتقهم. كما وَصَّى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات فى الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبة لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم فى الزواج والاستعفاف. ومن رحمته سبحانه بالإماءِ المستضعفات أنْ أنزل آية تمسح عار البِغَاء وإثمه عن الأَمَة المُكْرَهة على ذلك من قِبَل سيدها القوّاد. وكان لعبد الله بن أُبـيّ رأس الضلال والنفاق أَمَةٌ أَمَرَها فزَنَتْ، فجاءت ببُرْد، فقال لَها: ارجعي فـازْنِـي. قالت: والله لا أفعل. إنْ يَكُ هذا خيرا فقد استكثرتُ منه، وإن يَكُ شرّا فقد آن لـي أن أَدَعهِ". وقد نزل فى ذلك كله قوله جل شأنه: "وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ 32- 33).

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالربا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدين، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (الروم/ 39)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/275- 280)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/ 130). ولم يكن عرب

الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضًا اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن المجيد مبينا كيف أن الله عاقبهم عقابا شديدا جَزَّاءَ ذلك الاستغلال الإجرامى القاسى فى التعامل مع المحتاجين: "فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء/ 160- 161).

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائما، ورفض للمرابين أن يأخذوا أية فوائد على قروضهم، رغم أنه قد غض البصر عما كان قد سلف منه فى الجاهلية قبل مجيئه. وفى تفسير الطبرى: "كانت ثقيف قد صالحت النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربًا على الناس وما كان للناس عليهم من ربًا فهو موضوع (أى مُلْغًى). فلما كان الفتح استعمل عتّابَ بن أُسَيْد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رِبَاهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أُسَيْد، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: "يا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرّبا إِنْ كُنْتُمْ مُوءْمِنِينَ* فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ..."، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب وقال: "إِنْ رَضُوا، وَإِلاّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ". وقال رسول الله فى خطبته يوم الفتح: "أَلا إِنّ رِبا الجاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ، وَأوّلُ رِبًا أَبْتَدِئُ بِهِ رِبَا العَبّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطّلِب".

وكان المَيْسِر، وهو القِمَار، من الآفات التى ابتُلِىَ بها عرب الجاهلية، و"كانوا يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المقمور فقيرا فتَحْدُث من ذلك ضغائن وعداوات" كما يقول الثعالبى. وقد أورد الطبرى عن ابن عباس: "كان الرجل فـي الـجاهلـية يخاطر (أى يقامر) علـى أهله وماله، فأيهما قَمَرَ صاحبَه (أى غلبه فى القمار) ذهب بأهله وماله". ومن هنا نستطيع أن نفهم تشديد التحريم له في قوله سبحانه: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ" (المائدة/ 5)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ 90). وفى القمار يقول الطبرى إنهم "كانوا يـياسرون (أى يتقامرون) علـى الـجَزُور (وهو الجمل أو الناقة المُعَدّان للذبح)، وإذا أفلـج الرجلُ منهم صاحبَه (أى كَسَبَه) نـحَرَه، ثم اقتسموا أعشارا علـى عدد القِدَاح (السهام). وفـي ذلك يقول أعشى بنـي ثعلبة:

وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ إلـى النّدَى ** ونِـياطِ مُقْـفِرَةٍ أُخافُ ضَلاَلَهَا"

ويزيد الزمخشرى الأمر تفصيلا فيقول: " كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذّ والتَّوْأم والرقيب والحِلْس والنَّافِس والمُسْبِل والمُعَلَّى والمَنِيح والسَّفِيح والوَعْد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المَنِيح والسَّفِيح والوَعْد. ولبعضهم: لِيَ في الدنيا سهامٌ ليس فيهنّ رَبِيحُ ** وأساميهنّ وَعْدٌ وسَفِيحٌ ومَنِيحُ

للفَذّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرَّقِيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنَّافِس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمُعَلَّى سبعة. يجعلونها في الرِّبَابة، وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدْل، ثم يجلجلها (أى يحرّكها) ويُدْخِل يده فيُخْرج بِاسْم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا منها. فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القِدْح. ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وعَرِمَ ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البَرَم".

وفى الآيتين تحريم للأزلام أيضا، وهى سهامٌ ثلاثةٌ متشابهةٌ كانوا يضعونها فى كنانة، ثم يحركونها حتى تختلط ولا يمكن تمييز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يده فيسحب منها واحدا. فإذا كان هذا السهم مكتوبا عليه :"افعل"، فإن الشخص المُسْتَقْسِم يفعل ما كان ينوى أن يفعله، وإن خرج السهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل ما كان يريد، أما إذا كان السهم غير مكتوب عليه شىء، أُعِيد تحريك السهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد استبدل الإسلام بهذه الطريقة الوثنية طريقة أخرى تربط الإنسان بربه، وهى "الاستخارة". ونترك الإمام الطبرى يشرح الأمر بقلمه كما كتبه عند تأويله للآية الخامسة من سورة "المائدة": "ذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوًا أو نحو ذلك أجال القِدَاح، وهي الأزلام (أى هَزّ الكنانة بما فيها من سهام)، وكانت قِدَاحا مكتوبا على بعضها: نهاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي. فإن خرج القِدْح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي" كفّ عن

الـمضيّ لذلك وأمسك. فقـيـل: "وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بـالأزلامِ"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمْنَ لهم. ومنه قول الشاعر مفتـخرا بترك الاستقسام بها:

ولَـمْ أَقْسِمْ فتَرْبُتَنـي القُسُومُ

وأمـا "الأزلام" فـإن واحـدها "زَلَـم", ويقـال "زُلَـم"، وهي القِداح التـي وصفنا أمرها". وهذه الأزلام كانت عند الكهنـة، وكـانوا هـم الـذين يقومـون بعمليـة الاستقسـام حسبما أورد الطبرى عن السُّدِّىّ.

ومن الملاحظ تكرير القرآن النهى عـن التطفيـف فـى الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصـنع ذلـك، وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحـدث فـى ذلـك الموضـوع ويكـرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيـزَانَ بِالْقِسْـطِ" (الأنعـام/ 152)، "وَأَوْفُــوا الْكَيْــلَ إِذَا كِلْتُــمْ وَزِنُــوا بِالْقِسْــطَاسِ الْمُسْـتَقِيمِ ذَلِـكَ خَيْـرٌ وَأَحْسَـنُ تَـأْوِيلاً" (الإسـراء/ 35)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن/ 9)، "وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِيـنَ* الَّـذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَـى النَّـاسِ يَسْـــتَوْفُونَ* وَإِذَا كَـــالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـــوهُمْ يُخْسِـــرُونَ" (المطففين/ 1ـ 3). وفى الطبرى: "عن عبد اللـه قـال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُوفُــون الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفـوا الكيـل، وقـد قـال اللـه: "وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِيـنَ*... * يَـوْمَ يَقُـومُ النّـاسُ لِـرَبّ الْعالَمِينَ"؟... وعن ابن عباس قال: لما قَدِم النبيّ صـلى الله عليـه وسـلم المدينـة كـانوا مـن أخبـث النـاس كيلاً، فأنزل الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ"، فأحْسَنوا الكيل".

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت فى أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبرى نفسه فى بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدماثة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة فى الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها فى الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرّر النهى عن الغَبْن فى المكاييل والموازين فى المرحلة المكية، بخلافه فى المرحلة المدنية، التى لم ينزل فيها شىء فى ذلك. ولا ينبغى أن نغفل عن أن المكيين كانوا، فى المقام الأول، تجارًا لا زُرّاعًا كاليثربيين. بل إن الحديث عن شيوع الغش فى المعاملات التجارية فى بعض الأمم القديمة وتلاعبها فى الكيل والميزان، وهى أمة شُعَيْب عليه السلام، إنما كان فى "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهى مما نزل فى مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث ويهاجم اليثربيين قبل الميعاد؟ الذى أراه هو أن المقصودين بالكلام عن الكيل والميزان إنما هم المكيون قبل غيرهم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب من هذا الانحراف الخلقى. وبالمناسبة فإن الواحدى والسيوطى مثلا فى كتابيهما عن "أسباب النزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بن عاشور فى "تفسير التحرير والتنوير" فيورد اختلاف العلماء فى مكية السورة أو مدنيتها، لينتهى إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضاف قائلا: "وعن القُرَظِيّ: كان بالمدينة تجار يطففون الكيل وكانت بياعاتهم كسبت القمار والملامسة والمناملة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق وقرأها، وكانت

عادة فَشَتْ فيهم من زمن الشرك فلم يتفطَّن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس. فأريد إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سَنُّوا التطفيف. وما أنْسَبَ هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي صلى الله عليه وسلم لئلا يشهد فيها منكرًا عامًّا، فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات". ولكنى، رغم هذا، ما زلت أرى أن "المطففين" سورة مكية لأسلوبها وموضوعاتها اللذين يشبهان أسلوب الوحى المكى وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل يثرب مُهَاجَرَه إليهم، فقد قلت إننى لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفِّف فى الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، فى نظرى، هم المقصودون أوّلاً وفى الأساس بهذه الآيات. أيًّا ما يكن الأمر، وهذا هو المهم فى الموضوع، فقد كان الجاهليون يتلاعبون فى مكاييلهم وموازينهم بما يأباه الخلق الشريف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار فى المجتمعات المتخلفة مما لا نجده فى نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحس التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية فى حد ذاتها هو المراد!

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرِّمون البَحِيَرَة والسائبة والحامى، وفى ذات الوقت يأكلون المَيْتَة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخنقة أو موقوذة (وهى المضروبة ضربا شديدا حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متردِّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراما، ويكون ما قتله (أى ذبحه) البشر حلالا؟ وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أُهِلَّ به لغير الله وما ذُبِح على النُّصُب. وسوف يأتى فى كلامنا عن الأمثال فى العصر الجاهلى إشارة إلى أكلهم الدم. وفى الطبرى أنهم "كَانُوا إذَا أَرَادُوا ذَبْح مَا قَرَّبُوهُ لآلِهَتِهِمْ سَمَّوْا اسْم آلِهَتهمْ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتهمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرهمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِح يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَةِ أَوْ لَمْ يَجْهَر: "مُهِلّ"، فَرَفْعهمْ أَصْوَاتهمْ بِذَلِكَ هُوَ الإِهْلال الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى". كما يقول القرطبى إن ما أُهِلَّ به لغير الله هو "ذَبِيحَة الْمَجُوسِيّ وَالْوَثَنِيّ وَالْمُعَطِّل: فَالْوَثَنِيّ يَذْبَح لِلْوَثَنِ، وَالْمَجُوسِيّ لِلنَّارِ، وَالْمُعَطِّل لا يَعْتَقِد شَيْئًا فَيَذْبَح لِنَفْسِه". و"النُّصُب" هى الأَوْثَان مِنْ الْحِجَارَة، وكَانَتْ تُجْمَع فِي الْمَوْضِع مِنْ الأَرْض، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَام، لأن الصَّنَم يُصَوَّر وَيُنْقَش، وَهَذِهِ حِجَارَة، فَكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّم عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنْ الْبَيْت وَشَرَّحُوا اللَّحْم وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَة.

أما البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكانت النَّاقَة إِذَا وَلَدَتْ أَبْطُنًا خَمْسًا أَوْ سَبْعًا شَقُّوا أُذُنهَا وَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة، وكَانَ الرَّجُل يَأْخُذ بَعْض مَالِه فَيَقُول: هَذِهِ سَائِبَة،

وكَانُوا إِذَا وَلَدَتْ النَّاقَةُ الذَّكَرَ أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَإِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْن قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَلا يَأْكُلُونَهُمَا. فَإِذَا مَاتَ الذَّكَر أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث. وكَانَ الْبَعِير إِذَا وَلَدَ وَوَلَدَ وَلَدُهِ قَالُوا : قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِظَهْرِهِ وقَالُوا: هَذَا حَام. وقيل أيضا: كانوا إذا نتجت (أي ولدت) الناقة خمسة أبْطُنٍ إناثا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أذنها فحُرِّمَتْ، وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذَكرًا بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها وكانت حرامًا على النساء لحمها ولبنها. وقيل: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقّوا أذنها وحرَّموا ركوبها ودَرّها. والسائبة: الناقة تُسَيَّب، أو البعير يُسَيَّب نذرا على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغه منزله، فلا يُحْبَس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد. وقيل: هي التي تُسَيَّب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها. وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذَكر، فعند ذلك لا يُرْكب ظهرها ولا يُجَزّ وَبَرها ولا يَشْرَب لبنَها إلا ضيف. والوَصِيلة: قيل: هي الناقة إذا وَلَدَتْ أنثى بعد أنثى، وقيل هي الشاة: كانت إذا وَلَدَتْ أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم. وقيل: كانوا إذا ولدت الشاةُ سبعة أبْطُن نظروا: فإن كان السابع ذكرا ذُبِح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تُركتْ في الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرْكب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُرْكب، فجاء الإسلام فحرَّم هذا كله. ومن الأخبار التى وردت عن ذبحهم لآلهتهم ما رُوِىَ عن ابن عباس من "أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ

عليها، وكان عبدًا لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائةً من الإبل يَنْحَرونها لآلهتهم".

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعًا مستطيرًا يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلى، ولقد أخذت هذه المسألة فى أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفّوا عن تعاطى أم الخبائث ممتثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقلعوا عنها إقلاعا لم يحدث من قبل ولا من بعد فى أى مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التى تتحدث فى موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" (البقرة/ 173)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/ 3)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (المائدة/ 103)، "قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/ 145)، "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ" (النحل/ 115- 116)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ 90). ولا أدرى أكان من العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم فى شريعة موسى عليه السلام، التى أكد المسيح أنه إنما أتى لتكميلها لا لنقضها، إلا أن بولس اليهودى ما إن دخل النصرانية حتى أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريبا، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير.

ولأن المجتمع العربى فى الجاهلية مجتمع رعوى كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية. وكان من أطعمتهم أيضا العسل، يحصلون عليه من النحل الذى يعيش فى الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيِّبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان/ 5). وقد امتنّ الله عليهم بهذا كله: "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ 66- 69)، "وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" (محمد/ 15)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً "(الإنسان/ 17)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين/ 25- 26) .

وفى تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثا عن بنى آدم: "ولأُضِلَّنَّهم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فلَيُبَتِّكُنَّ

آذان الأنعام، ولآمُرَنَّهم فلَيُغَيِّرُنّ خَلْق الله" (النساء/ 119) يقول الزمخشرى : "تَبْتِيكهم (أى تَبْتِيك عرب الجاهلية الوثنيين) الآذان: فِعْلُهم بالبحائر: كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذَكرًا، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وتغييرهم خلق الله: فَقْءُ عين الحامي وإعفاؤه من الركوب". وفى قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام/ 136) نرى لونًا آخر من اعتقاداتهم الوثنية التى كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونَتَاج دوابّهم نصيبا، ولآلهتهم نصيبا من ذلك يَصْرفونه على سَدَنَتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عَوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك. وقوله: "فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله"، أي إلى المصارف التي شرع الله الصَّرْف فيها كالصدقة وصلة الرَّحِم وقِرَى الضيف، ومعنى عبارة "وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم"، أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفى "الكشاف" للزمخشرى أنهم "كانوا يعيّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشياءَ منها لآلهتهم، فإذا رَأَوْا ما جعلوه للّه زاكيا ناميا يزيد في نفسه خيرا رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زَكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلّوا بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها". وفى قوله سبحانه: "فلا يصل إلى الله" يقول: "أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليه من قِرَى الضِّيفان والتصدق على المساكين"، أما قوله: "فَهُوَ يصل إلى شركائهم" فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النسائك عندها والإجراء على سَدَنتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفي الآيتين 138- 139 من نفس السورة نقرأ قوله عز شأنه: "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ* وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ". و"الحِجْر" هو التضييق، والمقصود أنهم يَقْصِرونها على طرفٍ دون آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عيَّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: "لا يَطْعَمها إلا من نشاء"، يَعْنُون خَدَم الأوثان والرجال دون النساء، أما الأنعام التى حُرِّمَتْ ظُهُورهَا فهى البحائر والسوائب والحَوامِي. ثم هناك الأنعام التى لا يُذْكر اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها. أى أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرَّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذْكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضا: "ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء"، أى أن ما وُلِد من أجِنَّة البحائر والسوائب حيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما وُلِد منها ميتًا اشترك فيه الذكور الإناث. وفى ذات السياق أيضا ورد قوله سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/ 56)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهى لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيبا مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكرارا لذكر الجبال فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعى، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ" (هود/ 42)، "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ

الْجِبَالُ" (إبراهيم/ 46)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ 68)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا" (النحل/ 81)، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" (طه/ 105)، "وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ" (فاطر/ 27)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا" (النبأ/6- 7)، "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" (النازعات/ 32- 33). كما أشار القرآن، فى آية مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هى ظاهرة السراب: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا" (النور/ 39).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح فى الجزيرة العربية، ومن هنا فكثيرا ما يمنّ الله على العرب بإنزاله من السماء ماء يُحْيى الأرض بعد موتها: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/ 22)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا" (الأنعام/ 99)، "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" (الأنفال/ 11)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ" (الزُّمَر/ 21)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (المُلْك/ 30)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" (النبأ/ 14- 16). والإبل هى أيضا من حيوانات الجزيرة العربية، وهى مما ورد ذكره في كتاب الله، بل هى الحيوان الوحيد الذى لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ

كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية/ 17- 20)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التى كان يقطنها العرب فى الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهى بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل فى بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوَبَر والشَّعْر والجلد، وهى الخيام، التى لا يعرف سكان البوادى غيرها نظرا لتنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل/ 80).

أما الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات التى كانت تعيش فى بلادهم أو يعرفونها ولو سماعا فقد ذكر منها القرآن الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والمَعْز والضأن والفيل والسَّبُع والأسد (الذى استخدم له القرآن كلمة "قَسْوَرَة") والقِرَدَة والكلب والخنزير والغراب والهدهد والسلوى والضفادع والحوت والحية والثعبان والجوارح والنحل والجراد والبعوضة والعنكبوت والذباب والنمل والقُمَّل: "إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا" (البقرة/ 26)، "الْمَنَّ وَالسَّلْوَى" (البقرة/ 57، والأعراف/ 160، وطه/ 80)، "بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ" (البقرة/ 68)، "بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا" (البقرة/ 69)، "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" (البقرة/ 70)، "وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ" (البقرة/ 269)،"وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ" (المائدة/ 3)، "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ" (المائدة/ 4)، "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ

أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائدة/ 31)، "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ" (المائدة/ 60)، "وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ" (الأنعام/ 142- 144)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ" (الأنعام/ 146)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ" (الأعراف/ 133)، "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" (الأعراف/ 176)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال/ 60)، "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" (هود/ 64)، "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" (يوسف/ 17)، "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ" (يوسف/ 43)، "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (النحل/ 8)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ 68)، "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" (الكهف/ 18)، "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهف/ 61)، "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ

حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه/ 18- 20)، "نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ" (الأنبياء/ 78)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ" (الحج/ 73)، "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ" (الشعراء/ 32)، "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" (النمل/ 18)، "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل/20)، "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (العنكبوت/ 41)، "إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" (لقمان/ 19)، "فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ" (الصافات/ 142)، "قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ" (ص/ 24)، "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (الجمعة/ 7)، "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدَّثِّر/ 51)، "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/17)، "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ 1).

وأما الثمار والفواكه والنباتات والأشجار التى كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعَدَس والبصل والقِثّاء والفُوم (وهو الثوم أو الحنطة) والقمح والبقطين (القَرْع) والخَمْط (الأراك) والأثْل (الطرفاء) والسِّدْر والطَّلْح والريحان والقَضْب والأبّ والضَّريع: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا" (البقرة/ 61)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ

مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام/ 99)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام/ 141)، "وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" (يوسف/ 43)، "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا" (الكهف/ 32)، "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم/ 25)، "وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" (طه/ 71)، "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ" (النور/ 35)، "وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" (سبأ/ 16)، "وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ" (الصافات/ 146)، "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ" (ق/ 9)، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ" (الرحمن / 11- 12)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن/ 68)، "فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" (الواقعة/ 28- 29)، "فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ" (الواقعة/ 89)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر/ 5)، "فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا*فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (عَبَس/ 24- 32)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ" (الغاشية/ 6)، "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" (التين/1).

وتبقى المعادن والجواهر والملابس: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" (آل عمران/ 14)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (أى الفضة) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ" (الكهف/ 19)، "لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" (الكهف/ 31)، " يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" (الحج/ 23،

وفاطر/ 33)، "وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ" (سبأ/ 10)، "وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ"(سبأ/ 12)، "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف/ 33)، "فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" (الزخرف/ 53)، "يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ" (الدخان/ 53)، "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ" (الطور/ 24)، "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ 22)، "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمن/ 35)، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ 58)، "وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ" (الحديد/ 25)، "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" (الإنسان/ 12)، "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ" (الإنسان/ 15).

وفى القرآن المجيد أيضًا ذِكْرٌ لمكة ويثرب والمدينة ولسان العروبة، وقريش ورحلتيها إلى الشام واليمن، والكعبة وإبراهيم أبى العرب وابنه إسماعيل، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسبإ وعاد وثمود ومَدْيَن، وهُود وصالح وشُعَيْب، واليهود والنصارى والصابئين والمَجُوس، والشِّعْر والشعراء والكُهّان والنفَّاثات فى العُقَد، والأشهر الحُرُم، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثأر ويجعلونها شهور هدنة، وإن كانوا أحيانا ما يستمرون فيه معوِّضين عنها بشهور أخرى يتوقفون فيها عن المعارك، وهو ما يسمونه: "النَّسِىء". كما كان الأخذ بالثأر تقليدا جاهليا راسخا فى أعماق النفس العربية، ولكنْ بالمقابل كانت مكة بما فيها الكعبة حَرَمًا آمنا لا يجوز الأخذ بالثأر فيه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقال: "البلد الحرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هذا كله جزءا من حياة العرب وجغرافيتهم وتاريخهم وثقافتهم ودينهم: "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا

فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ (بالأخذ بالثأر) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخذ الدية منه لأولياء القتيل حسبما يختارون)"
(الإسراء/ 33)، "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ (أى مكة) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (آل عمران/ 96- 97)، "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" (الفتح/ 24- 25)، "لإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ" (قريش/ 2)، "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (المائدة/ 97)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" (الأحزاب/ 13)، "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة/ 125- 129)، "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ" (الحج/ 78)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (التوبة/ 19)،

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة/ 51)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (المائدة/ 69)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج/ 17)، "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ" (سبأ/ 15)، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت/ 36- 38)، "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ" (هود/ 87- 89)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل/ 103)، "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" (الشعراء/ 192- 195)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا"

(الأحقاف/ 12)، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" (يس/ 69)، "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء/ 224)، "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" (الطور/ 29- 30)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ* وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقّة/ 40- 43)، "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفَلَق/ 4)، "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبة/ 36- 37)، "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (النمل/ 91)، "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا" (القَصَص/ 57)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" (العنكبوت/ 67)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة/ 2)، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الإسراء/ 1).

كما أبرز القرآن فى أكثر من موضع تمسُّك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقاليد تمسكا حديديًّا: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ

نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (البقرة/ 170)، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (المائدة/ 104)، "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الزخرف/ 22).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبينًا أن كُلاًّ من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذَّبوا يوم القيامة إلا أياما معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْرًا ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثلّثون الألوهية، ومن هؤلاء من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم فى الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطعمة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرّمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم فى النبوة وأنها محصورة فى بنى إسرائيل، وزَعْمهم أن الله قد عَهِدَ إليهم ألا يؤمنوا بأى رسول إلا إذا أتاهم بقربان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم فى غير اليهود سبيلا، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناتهم معهم دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ

زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة/ 6)، "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ (أى بنى إسرائيل) قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/ 24)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة/ 30- 31)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ 17)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (المائدة/ 72- 73)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ" (المائدة/ 116)، "وَإِنَّ مِنْهُمْ (أى من اليهود) لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

يَكْسِبُونَ" (البقرة/78- 79)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ 46)، "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ (أى بنى إسرائيل) لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة/ 13- 14)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ 146)، "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ 93)، "الَّذِينَ قَالُوا (أى اليهود) إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ 183)، "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من يهود المدينة) آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران/ 72- 75)، "وَقَوْلِهِمْ (أى اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ 157- 158). ويبقى المجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التثنية فى الألوهية هذا نصّها: "وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" (النحل/ 51)، وأقرب ما يمكن أن يفد إلى الذهن هنا ثَنَوِيَّة فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور، والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثّرًا بالفرس.

أمثال العرب فى الجاهلية

(دراسة لغوية اجتماعية)

"الأمثال" جمع "مَثَل"، وهو جملة من القول مقتطَعةٌ من كلام أو مرسلةٌ لذاتها تُنْقَل مما وردت فيه إلى مُشَابِهه دون تغيير. وتمتاز هذه الجملة بأنها تلخّص الموقف أو الجدال أو التعليق وتَحْسِمه على خير وجه، وبأنها قصيرة لا تتجاوز بضع كلمات، وبأنها من الحيوية والسلاسة وحلاوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدُّد الأبعاد بحيث يُكْتَب لها السيرورة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنها لا تخلو فى كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة. وبعض الأمثال قد يكون مسجوعا متوازنا، وإن لم يكن هذا شرطا لا بد منه.

وقد كتب حنا الفاخورى زاعما أن الأمثال الجاهلية، لكونها "كلام الشعب فى جميع طبقاتهم، فقد جاءت فى أكثرها غير مصقولة كما فى قولهم: أول ما أَطْلَعَ ضَبٌّ ذَنَبَه" (حنا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربى/ بدون تاريخ أو

دار نشر/ 202). وهذا حكمٌ جُزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس فى عبارة المثل الذى أورده ما يدل على ركاكة أو ضعف فى الصياغة البتة، وكلامه مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقى ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفى وعامر بن الظَّرِب، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها فى خطاباتهم". بل إننى لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به الفاخورى. أما قول الدكتور شوقى ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدرا من المصادر التى اعتمدوا عليها فى استخلاص قواعدهم لا أن يحكِّموا تلك القواعد فى مثل هذه النصوص الجاهلية التى يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يُذْكَر، إن كان قد دخلها أى تغيير على الإطلاق كما قال الأستاذ الدكتور نفسه (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ط 7/ دار المعارف/ 404، 408)، على عكس ما يؤكد فارق (K. A. Fariq) فى كتابه: "History of Arabic Literature"، إذ يقول إن النثر الجاهلى كله (بما فيه الأمثال طبعا)، شأنه شأن الشعر فى ذلك العصر، قد دخله تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبدّلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوّهوه، وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأى برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التى، نظرا لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على استعمالها كما نُطِق بها لأول مرة دون أى تحوير، يصعب جدا جدا أن ينالها شىء من هذا الذى قال. وسوف نتوسع بعض التوسع

فى معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوى: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة: لا فى وَقْعها على الأذن ولا فى وقعها على الذهن، ولا تشكِّل لهم من ثَمّ أية صعوبة فى فهم دلالتها، بَيْدَ أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآضَتْ بحاجة إلى من يشرح للقراء معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شىء فى الحياة، فيموت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليها ألفاظ لم تكن معروفة من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعضا من تلك الألفاظ التى تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصرى، إما لأنها غريبة عليه تماما، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه فى ذاتها، فهى غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعنى فى لغتنا الحالية معنى آخر غير الذى كان لها قبلا، أو هى غريبة عليه بصيغتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هذا النوع من الألفاظ "الاحتلاط: الغضب" (أوَّل العِىّ الاحتلاط)، و"القَيْن: الحداد" (إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح)، و"الصَّرِيح: اللبن الذى ليس فوقه رُغْوَة" (أبْدَى الصريحُ عن الرَّغْوة)، و"العِذْرة: العُذْر"، و"الحَقِين: الوَطْب الذى يُحْقَن باللبن" (أبَى الحَقِينُ العِذْرة)، و"ارْجَحَنّ: مال" و"الشّاصِى: الرافع رجله" (إذا ارْجَحَنّ شاصيًا فارفع يدا)، و"القِدْح: السهم الذى كانوا يستقسمون به، أى يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يتوهمون" (أبْصِرْ وَسْم قِدْحك)، و"الشِّرْب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء" (آخِرُها

أقلُّها شِرْبا)، و"العِقْى (وجمعه "أَعْقاء"): ما يخرج من الصبى عند ولادته" (احْذَر الصبيان لا تُصِبْكَ بأعقائها)، و"الذِّلّ (وجمعه "أذلال"): السهولة" (أَجْرِ الأمور على أذلالها)، و"الحَسّ: الاستئصال"، و"الأَسّ: الأصل" (ألْصِق الحَسّ بالأَسّ)، و"السَّلَى: مشيمة الحُوَار، وهو الجَمَل الوليد" (انقطع السَّلَى فى البطن)، و"الوَذَم: سيور تُرْبَط بها أطراف العَرَاقِىّ، وهى الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يُحْمَل منهما، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخّرة، والمفرد: عَرْقُوَّة" (أمِرَّ دون عُبَيْدَة الوَذَمُ: لم يستشره أحد فى الأمر لهوان شأنه)، و"البَعَاع: المتاع والثقل" (ألقى عليه بَعَاعَه: ألقى عليه نفسه من حُبّه له)، و"الزُّخَارِىّ: النبت عند ارتفاعه" (أخذت الأرض زُخَارِيَّها: اكتملَت وبلغت الغاية)، و"الرَّطِيط: التذمر" (أرِطِّى، إن خيرك فى الرَّطِيط)، و"العَقَنْقَل: المُصْران" (أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ: أعطه من كل ما معك مهما يكن تافها)، و"حَظَبَ يَحْظُب: سَمِنَ" (أُعْلُل تَحْظُب)، و"النَّجِيث: ما كان خافيا فظهر" (بدا نجيث القوم)، و"الحُذَيّا: العطيّة" (بين الحُذَيّا والخُلْسَة: إما أن تعطيه مما معك وإما اختلسه منك، أى أنه لا فَكَاك من أخذه منك ما معك)، و"الطِّرّيقة: اللين والضعف"، والعِنْدَأْوَة: العِنَاد" (تحت طِرّيقته عِنْدَأْوَة)، و"الثَّأْطَة: الطين" (ثأطةٌ مُدَّتْ بماء: بمعنى "زاد الطينَ بِلّة")، و"الجَدْح: الشُّرْب" (جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيقٍ غيره. وجُوَيْن: اسم شخص، والسَّوِيق نوع من الطعام)، و"القُذَّة: الريشة التى تركّب على السهم" (حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة)، و"هَرَاق: أرَاق" (خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤه، ومَنْ هُرِيق بالفلاة ماؤه: لأنه لا أمل فى صلاحه)، و"اليَلْمَع: السراب" (أخْذَل من يَلْمَع)، و"الدَّبَرِىّ: الذى يأتى بعد فوات الأوان" (شرّ الرأى الدَّبَرِىّ)، و"الحَفْحَفَة: السَّيْر السريع الشديد" (شرّ

السير الحَفْحَفَة)، و"الجِرْوة: النَّفْس" (ضَرَب على الأمر الفلانى جِرْوَته: وطّن نفسه عليه)، و"الهِلْباجة: النؤوم الكسلان، أو الثقيل الجافى" (أعجز من هِلْباجة)، و"غَشَمْشَم: غَشُوم" (غشمشمٌ يَغْشَى الشجر: يُفْسِد كل شىء ولا يبالى، كالثور فى محل الخزف)، و"القُرَاب: القُرْب" (الفِرَار بقُرَابٍ أكيس: الفرار قبل التورط فى المهلكة أفضل من التمادى فى الأمر)، و"القَطُوف: البطىء المتأنى فى مشيته"، و"الوَسَاع: المسرع السابق" (القَطُوف يَبْلُغ الوَسَاع: قد يلحق المتأنى المتعجِّلَ)، و"الكِفْت والوَثِيَّة: القِدْر الصغيرة والكبيرة" (كِفْتٌ إلى وَثِيّة: تقال لمن لا يكتفى بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بل يُلْحِق به مكروها آخر)، و"البِضَاع: الجِمَاع" (كمعلِّمةِ أمها البِضَاع)، و"جَلَل: صغير" (كلُّ شىءٍ أخطأ الأنفَ جَلَل"، و"اليَهْيَرّ: السراب" (أكْذَب من اليَهْيَرّ)، و"لِحَام: لحوم" (لكنْ لِحامٌ بِشَرْمَةَ لا تُجَنّ)، "بَلِلْت: ابْتُلِيت" (ما بَلِلْتُ من فلان بأفْوَقَ ناصِل: اتضح أنه رجل صعب المراس. والأفوق الناصل: السهم المكسور)، و"وَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَة لا من التوديع" (من لم يَأسَ على ما فات ودَّعَ نفسه)، و"العَبَكَة: ما يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها" (ما أبَاليه عَبَكَةً)، و"مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع" (لاطئٌ بالأرض ينتهز فرصة ليثب على عدوه)، و"تعَظْعَظَ: اتَّعَظ" (لا تَعِظِينى وتَعَظْعَظِى).

وثمة جانب فى الأمثال يحسن أن نتناوله ضمن ما نتناول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية. والواقع أن مثل هذه الألفاظ لا تظهر بقوة فى الأمثال الجاهلية ولا فى الأمثال العربية الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منها فى الأمثال الجاهلية التى وقعت لى فى كتاب "جمهرة الأمثال" لأبى هلال العسكرى إلا "الضُّرَاط"

و"الاسْت" و"الخُرْء"، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ فى حد ذاتها. وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيرا فى كلام الجاهليين نظرًا لخشونتهم وبداوتهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جاء شيئا آخر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقا لما تقوله أمثالهم فى هذا الشأن. وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين فى تلك الأمثال: "أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟"، "أَضَرِطًا آخر اليوم؟"، "اسْتُ البائن أعلم"، "اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، "قد يَضْرِط العَيْرُ والمِكْواة فى النار"، "خَرِئَتْ بينهم الضبع".

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صرفية وتراكيب نحوية لم تعد تستخدم الآن، مثل استعمال "ليس" فى موضع حرف العطف "لا" كما فى المثل التالى: "إنما يَجْزى الفتى ليس الجمل"، وهو استعمال لـ"ليس" لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى استعمالها أداة استثناء مثل "إلاّ" كما فى قولنا: "قام الطلاب ليس عَلِيًّا"، أى قاموا إلا عَلِيًّا. ومن هذه التراكيب أيضا حذف خبر "أنَّ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما فى الشاهد التالى: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أَسَيْمِرًا"، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلا المكان الذى يسمَّى "شرجًا"، إلا أن الأَسَيْمِر (أى شجرات السَّمُر) التى كنت أعبدها فيه ليست موجودة". وتمام الكلام إذن هو: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أَسَيْمِرًا كنت أعبدها من قبل كانت هناك". ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع فى "أَسْمُر" (جمع "سَمُرَة")، وتصغير صِيَغ الجمع كما هى (أى دون ردّها إلى صيغة المفرد أوّلاً) ممنوع بوجه عام فى اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نَصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القِلّة، ومنها صيغة "أَفْعُل" التى بين أيدينا. كذلك يعرف الملمّون

بالنحو العربى أن هناك مواضع تحذف فيها "كان" واسمها، لكن ليس من بينها "إلا"، التى نلاحظ فى الشاهد التالى كيف أن قائل المثل قد حذف بعدها "كان" واسمها مثلما يحذفهما العرب بعد "لو" كما فى قول الرسول الكريم مثلا: "التمس ولو خاتَمًا من حديد" (أى "ولو كان الذى تلتمسه مَهْرًا مجرد خاتَم من حديد لا قيمة له تُذْكَر")، وكذلك بعد "إنْ" المكرَّرة كما فى مثل قوله عليه السلام: "الناس مجزِيُّون بأعمالهم: إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ"، أى إن كان العمل المجزِيّون به خيرًا فالجزاء خَيْرٌ، أو كان هذا العمل شرًّا فالجزاء شَرٌّ. ونَصّ المثل هو: "إلاّ حَظِيَّةً فلا أَلِيَّةٌ"، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظوة عند من تريد أن يكرمك فلا تَألُ أن تتودد له". ومن الشواهد التى جاءت فيها " كان" واسمها محذوفين قولهم فى المثل التالى: "قد قيل ذلك إنْ حقًّا وإنْ كذبًا"، أى أنه قد قيل ما قيل، وانتهى الأمر، سواء كان الكلام المَقُول حقا أو كذبا. كذلك انظر إلى المثل التالى: "أنا غَرِيرُك من الأمر" (ومعناه: "أنا عالم بالأمر علمًا يجعلنى أجيبك فى أى أمر منه حتى لو كان سؤالك على حين غِرّة") كيف أدى التركيب فيه إلى المعنى المقصود رغم أنه لا يدل عليه دلالة مباشرة لا تُحْوِج إلى شرح. وهناك أيضا المثل التالى بتركيبه الذى لا يقابلنا فى فصحانا المعاصرة رغم استمراره فى العاميّة: "أَعْوَرُ، عَيْنَكَ والحَجَرَ"، فهو يدل على التحذير من خطر يتهدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذى يمكن أن يصيب عين الأعور، مع ملاحظة أن كلا من المهدِّد (الحجر) والمهدَّد (العين) منصوب كما هو واضح. وهو تركيب لا يستعمل الآن إلا فى العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التى تقابلنا فى النصوص القديمة كثيرا. ولا تنس أن أداة النداء قد حُذِفت كذلك فى النص، إذ الأصل: "يا أعور"، والمقصود: "أيها الأعور، احذر أن يصيب عينَك

الوحيدةَ الباقيةَ حجرٌ يذهب ببصرها أيضا فتصبح أعمى تماما".

أما فى قولهم: "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلة؟" فقد حُذِف الفعل وفاعله، وهو استنكار لجمع الشخص بين خَلّتين سيئتين فى تعامله مع الناس بدلا من الاقتصار على واحدة منهما ليست فى ذاتها بالقليلة. ومثله قولهم فى مثلٍ آخر: "أغَيْرَةً وجُبْنًا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذى يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عِرْضه للعدوان. وهناك صيغة صرفية قابلتنى فى الفعل: "اَنْجَدَ" من قولهم: "أَنْجَدَ من رأى حَضَنًا" (إشارةً إلى الوصول إلى الغاية)، وهى صيغة "أفْعَلَ" للفعل الماضى المشتق من اسم بلدٍ ما أو مدينةٍ من المدن، كقولهم: "أعْرَقَ، وأشْأَمَ، وأعْمَنَ، وأيْمَنَ، وأمْنَى"، أى وصل العراق أو الشام أو عمان أو اليمن أو مِنًى أو شارف الوصول. و"حَضَنٌ" اسم جبل مشهور فى نجد. وثمة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً فى الموضع الذى جاءت فيه، وهى صيغة "أفعال" فى قولهم: "أجناؤها أبناؤها" (جمع "جانٍ" و"بانٍ") بدلا من "جُنَاتُها بُنَاتُها"، أى أن من جَنَوْا عليها (أى هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بَنَوْها. وهى صيغةٌ جمعيةٌ قليلةُ الاستعمال فى هذا الموضع حسبما قلنا كما فى "صاحِب: أصحاب" و"شاهِد: أشهاد"، ولكنها ليست خاطئة كما قد يُفْهَم من كلام د. شوقى ضيف، الذى علق على هذا المثل قائلا إن "القياس "جُنَاتُها بُنَاتُها" لأن "فاعِلاً" لا يُجْمَع على "أفعال"..." (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 408)، وفاته أن القرآن نفسه قد استخدم "أشهاد" فى موضعين منه (هود/ 18، وغافر/ 51)، ومثلها "أصحاب"، التى تكررت فيه نَيِّفًا وسبعين مرةً، وهما جمع "شاهِد" و"صاحِب" على التوالى، وليس بعد

قول الله قول. كما ورد عن العرب أيضا "قابِس: أَقْباس" و"جاهِل: أَجْهال" حسبما ذكر عباس أبو السعود فى كتابه: "الفيصل فى ألوان الجموع" (دار المعارف/ 1971م/ 40). أما فى قولهم: "إذا جاء الحَيْن، حَارَ العين" فنلاحظ تذكير الفعل: "حَارَ" رغم إسناده لمؤنث، وهو استعمال صحيح لأن لفظة "العين"، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازى، أى أنها ليست كائنا حيًّا له عضو أنوثة كالمرأة والدجاجة مثلا، ومن ثم جاز فى لغة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر اكتفاؤهم بالحال فقط من بين أركان الجملة جميعا كما فى المثلين التاليين: "أضَرِطًا وأنت الأعلى؟"، "أضَرِطًا آخر اليوم؟". أما فى قولهم فى المثل التالى: "اقْلِبْ قَلابِ" (أى اقلب الكلام وعُدْ إلى ما قلتُه من قبل. وهو مثل يُضْرَب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها) فعندنا صيغة "فَعَالِ" التى تعنى "افْعَلْ"، مثل "دَرَاكِ"، "نَزَالِ"، أى أَدْرِكْ، وانْزِلْ. ومن أسماء الأعلام التى قابلتنى فى أمثال الجاهليين على هذه الصيغة أيضا اسم "عَرَارِ"، وهو من أسماء الأعلام المؤنثة، وقد ورد فى المثل التالى: "باءت عَرَارِ بكَحْل"، أى أن عرارِ وكحلاً بقرتان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فإذا أَخَذْتَ هذه بدلا من تلك، أو تلك بدلا من هذه، لم تخسر شيئا. ولنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فاعلا، قد بُنِىَ على الكسر، وهذا إعرابه دائما فى لغة الحجازيين مهما تغيرت وظيفته فى الجملة. ومنه أيضا ما ورد فى الأمثال التالية: "اِسْقِ رَقَاشِ، إنها سقّاية" (اسم امرأة كريمة)، "القولُ ما قالت حَذَامِ" (اسم امرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أجرأ من خاصَى خَصَافِ" (اسم فرس خصاه صاحبه كى لا يأخذه منه ملك أعجبه الفرس وأراد أن

يستولى عليه)، "رُوغِى جَعَارِ، وانظرى أين المفرّ" (اسم عَلَمٍ على الضبع)، "أَزْنَى من سَجَاحِ" (وهى الكاهنة التميمية المشهورة التى ادعت النبوة عند موت النبى عليه السلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لها مع مسيلمة الكذاب قصة معروفة هى التى شَهَرَتْها بهذا المثل)، "صَمِّى صَمَامِ" (اسم للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعبيرا عن الضيق بها والرغبة فى انقشاعها). بيد أن هذه الصيغة لا تبلغ غرابة صيغة "فُعَّيْلَـى" التى نقابلها فى الشاهد التالى مرتين: "الأخذ سُرَّيْطَى، والقضاء ضُرَّيْطَى"، أى هو فى الاستدانة لطيف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصًا شَكِسًا سَـيِّء الذمة. وفى قولهم: "أخذه الله أخذ سَبْعَة" نراهم يسمون اللبؤة: "سَبْعة" (تأنيث "سَبْع")، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومَثَلُها فى هذا مَثَلُ "رَجُلَة" (مؤنث "رَجُل") بدلا من "امرأة".

وفى بعـض الأمثـال نلاحـظ إيـراد الحـرف "مـا" قبـل الفعل المتأخر عن شـبه الجملـة، وذلـك لتأكيـد المعنـى، ومثله قولهم: "باليدين ما أَوْرَدَها زائدةُ" (و"زائدة" اسـم رجل)، "بِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّك"، "قبلك ما جـاء الخـبر"، "لـك مـا أبكى، ولا عَبْرَةَ بى"، "وبالأشْقَيْنَ مـا حَـلَّ العِقَـابُ". كمـا أن هناك مثلا واحدا علـى الأقـل تكـررت فيـه "بيـن" مـع اسـمين ظـاهرين علـى خلاف مـا يـدعى بعـض اللغـويين المتنطّسين من أن مثل هذا التكرار لا تجيزه العربية، ثـم اتضح لى منذ سنوات غير قليلـة أن ذلـك غيـر صـحيح، إذ وجدتُ فى الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى عشـرات الشواهد التى تدل على أنه ليس فى هذا التكرار ما يعاب مـن جهـة الأسـلوب العربـى الأصـيل، وإن لـم يـرد ذلـك التركيب فى القرآن، إذ القرآن الكريم لا يسـتوعب، كمـا هو معروف، كـل إمكانـات اللغـة، فهـو كتـاب سـماوى لا

معجم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بين المطيع وبين المُدْبِر العاصى"، أى أنه لا يوثَق بموقفه، فهو متذبذب بين الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى فى طريقها. ومن التراكيب التى قابلتنى هنا أيضا وأرى أنه ينبغى التلبث عندها قليلا التركيب الذى عليه المثلان التاليان: "جَارِى بَيْتَ بَيْتَ"، "وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ"، ببناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صباحَ مساءَ"، "ليلَ نهارَ"، "أحدَ عشرَ". وقد أجريتُ التعبير العامى: "خَبْطَ لَزْقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعِّما الفصحى به على طريقتى فى إغناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف. ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اذهب إلى المكان الفلانى جَرْىَ جَرْىَ... وهكذا.

ومما لفت انتباهى من التراكيب التى قابلتنى فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شيئًا إلى الإنسانِ ما مُنِعَا"، الذى استُخْدِم فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أفعل التفضيل" (كما فى الجملة التالية: "أَحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا")، مع نَصْب "شىء" لا جَرّه كما يلاحظ القارئ. وهناك أيضا تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة فى الشواهد التالية من أمثال العرب القدماء، وهى: "فتًى ولا كمَالِكٍ"، "مَرْعًى ولا كالسّعْدان"، "ماءٌ ولا كصَدّاء"، فالاسم الذى بعد "ولا" مفضَّل على ما قبلها. وقريب منه قولهم: "المنيَّةُ ولا الدنيَّة"، "النارُ ولا العارُ"، وإن كان التفضيل فى هذا التركيب الأخير للمذكور أوّلاً، وهو "المنيّة" و"النار" على الترتيب. أما فى المثلين التاليين اللذين يجريان فى تركيبهما على ذات المنوال فإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففى قولهم: "مرعًى ولا أكولةٌ"، و"عشبٌ ولا

بعيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المرعى والعشب بغزارة، ولكن دون فائدة، إذ لا وجود للماشية التى يمكن أن تأكله. وبالنسبة لاستخدام كلمة "رُوَيْد" لا أظننا الآن نعرفها إلا فى قولنا: "رُوَيْدًا يا فلان"، بيد أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما فى المثلين التاليين: "رُوَيْدَ الشِّعْرَ يَغِبَّ" (انتظر قليلا حتى ينتشر الشِّعْر بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله فى العقول)، "رُوَيْدَ الغَزْوَ ينمرقْ". ولاحظ كيف أن الاسم بعد "رُوَيْدَ" يكون منصوبا. وللنحاة فى هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغى أن نجرى مع تقديرات النحاة التى لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد"رُوَيْدَ" ("رُوَيْدَ" دون تنوين) يكون منصوبا، والسلام، وذلك دون أن نعنّى أنفسنا بالبحث عن السبب فى هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلى هذه الكلمةَ فعلٌ كما فى المثل التالى: "رُوَيْدَ يَعْلُون الجَدَد"، أى ارفق حتى يمكننى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق أنفسنا مع الصرفيين فى توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقًا لما يقول به بعضٌ أو "إرواد" بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعْلَى"، إذ لا يفد على ذهنى منها الآن إلا "العُقْبَى" (أى "العاقبة") و"الشُّورَى" و"النُّعْمَى" (أى "النعمة")، و"البُقْيَا: أى الإبقاء"، و"الدنيا". وفى القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُّجْعَى" (بمعنى "الرجوع") و"السُّوأى" (أى "السُّوء")، و"اليُسْرَى"، و"العُسْرَى". ومن أسماء النساء عند العرب "سُعْدَى" و"سُلْمَى"، وفى الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضا "رُغْبَى" و"رُهْبَى": "رُهْباك خيرٌ من

رُغْباك"، أى رهبتك خير من رغبتك، والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَفَيْدَد: الظليم (أى ذَكَر النعام)" فى المثل التالى: "أَشْرَه من خَفَيْدَد" فقد جاء على صيغة لا أظننى قابلت اسما آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن أتذكر اسما من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كان هناك "سَمَيْدَع: الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب التى وجدتها فى أمثال الجاهليين أيضا قولهم: "عَدْوَكَ إذ أنت رُبَع" لتحميس الشخص ليبذل أقصى ما عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية. و"العَدْو" هو الجرى السريع، و"الرُّبَع" هو الجمل فى شبابه. والشاهد فى الكلام هو نصب "عَدْوَك" على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينتشر فى الأسلوب العصرى على نطاق واسع. أما المثل القائل: "عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا" فهو يخالف القاعدة العامة التى تقول إن خبر"كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع "أَنْ" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا "عسى" فى هذا المثل مجرى "كان" وأخواتها. وبالمناسبة فهذا المثل هو أحد الشواهد فى كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال. وهناك استعمال آخر لـ"عسى" يسوّيها بـ"لعلّ"، فينصب اسمها ويرفع خبرها، الذى يمكن فى هذه الحالة أن يكون مفردا أو شبه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من السعوديين حين يهنئ بعضهم بعضا بالعيد فيقولون: "عساكم من عُوّاده". وبالمثل نجد أهل اللغة المهتمين بصحة الأساليب يخطِّئون مجىء "لا" بين "قد" والمضارع قائلين إنه ينبغى فى هذه الحالة الاستعاضة بـ"ربما" عن

"قد" فلا يقال مثلا: "قد لا ألعب"، بل لا بد فى هذه الحالة من تغييرها إلى "ربما لا ألعب". وقد غَبَرَ علىّ زمن كنت أخطِّئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكم لا معنى له، كما وجدت فى كتاب محمد العدنانى: "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى نصه:

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتنى * وقد لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا

وهو مَثَلٌ يُضْرَب للشىء الرائع الذى لا يخلو أن يجد من يعيبه رغم هذا، وإن كانوا يحذفون منه "قد". وهناك بيت آخر للنمر بن تَوْلَب الشاعر المُخَضْرَم، أورده العدنانى أيضا، ونصه:

وأَحْبِبْ حبيبك حُبًّا رُوَيْدًا * فقد لا يَعُـــــولك أن تَصْـــــرِما

إلـى جـانب عبـارتين لابـن جنـى وابـن مالـك صـاحب الألفية، وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لى، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية مجتهدا ما استطعتُ فى مقاومة الملل والضيق أثناء بحثى عن الشواهد المرادة، لكنى، فى حدود ما تنبهتُ وغالبتُ ملل البحث فى أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفى الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لى أنا شخصيا مما لا أُلْزِم به غيرى تجنُّبَ استعمال ذلك التركيب فى كتاباتى بما فيها الرسائل الشخصية التى لم أكن أتحرز فيها تحرزى فى الكتابات الرسمية والأدبية، والعَوْد أحمد كما يقولون. بَيْدَ أننى قد

عثرت رغم ذلك بالمَثَل التالى أثناء قراءتى لكتاب أبى هلال العسكرى الحالىّ: "جمهرة الأمثال"، وقائله رجل جاهلى هو سعد بن زيد مناة التميمى، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذى يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التى ساقها الأستاذ العدنانى، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يُقَاد بى الجمل". أى أننى لم أكن قبلا أحتاج إلى من يقود بى الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شِبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسى. فالمَثَل إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من تحسر بعد أن ضعفت قواه وولَّى عنه الشباب.

وهناك مثَلٌ لفت نظرى كونُه جملة اسمية خالية من أى فعل بما يعنى خلوها من التحديد الزمنى، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقا دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قَصْره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضى، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لكنْ بشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ". و"الجَدُود" هى القليلة اللبن، والمثَل فى امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت غنًى وكثرت عندها الماشية ودَرَّ اللبن، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لتذكيرها بأيام فقرها حين كانت تنزل الموضع المسمَّى: "شَعْفَيْن" كى تكف عن هذا الفخر الكريه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن "أفعل تفضيل" مباشرا مشتقًّا من فعل مبنى للمجهول، وهو ما يرفضه كثير من الصرفيين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كان لكل قاعدة شواذ كما نعرف، ومنها الأمثال التالية: "أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن"، "أَقْوَد من مُهْر"، "أَمْنَع من عُقَاب الجو". ونختم هذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد فى المثل التالى: "وِجْدانُ

الرِّقين يغطِّى على أَفَن الأَفِين"، أى أن غنى الشخص وامتلاكه للرِّقين، وهى الفضة، يستر على كل عيوبه وحماقاته. فـ"الرِّقين" جمع "رِقَة"، وهو ما يسمى فى الصرف بالملحق بجمع المذكَّر السالم، لأن كلمة "الرِّقَة" لا تتوفر فيها الشروط التى لا بد منها فى ذلك النوع من الجمع، مَثَلُها فى هذا مَثَلُ "بُرَة: بُرُون- بُرِين"، "كُرَة: كُرُون- كُرِين"، "عِزَة: عِزُون- عِزِين"، "عِضَة: عِضُون- عِضِين"، "مِئَة: مِئُون- مِئِين"، "رِئَة: رِئُون- رِئِين"، "سَنَة: سِنُون- سِنِين"...إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقى لاحظنا أن بعض الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة (كلها أو بعضها) بغية توفير قدر من الجاذبية الصوتية لضمان المتعة والحفظ والسيرورة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه. وها هى ذى الشواهد على ما نقول: "اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردتَ المحاجزة فقَبْلَ المناجزة، "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ"، "إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُبْ"، "إذا جاءِ الحَيْن، حارَ العَيْن"، "اِرْقَ على ظَلْعك، واقْدِرْ بذَرْعك"، "أَرِنِيها نَمِرَة أُرِكَها مَطَرَة"، "أَعْذَرَ من أَنْذَر"، "إن القُنُوع الغِنَى لا كثرة المالِ"، "إننى لن أَضِيرَه. إنما أطوى مَصِيرَه"، "استغنت الثُّفَّة عن الرُّفَّة"، "بِعْتُ جارِى، ولم أَبِعْ دارى"، "جاء بالطَّمّ والرِّمّ"، "جَدَّك لا كَدَّك"، "حال الجَرِيض دون القَرِيض"، "الخَلاء بَلاء"، "دُهْدُرَّيْن سَعْد القَيْن"، "رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل"، "ضَرْب أخماسٍ لأسداس"، "الطريفُ خفيف، والتِّليدُ بليد"، "قُرْبُ الوِسَاد، وطُولُ السَّوَاد"، "كُلُّ الحِذَاءِ يحتذِى الحافى الوَقِع"، "لولا اللئام لهَلَكَ الأنَام"، "ليس من العَدْل سرعة العَذْل"، "مَنْ لى بالسانِح بعد البارِح؟"، "المنايا على البلايا"، "مِنَ العَنَاء رياضة

الهَرِم"، "هذا أوان الحرب، فاشتدِّى زِيَمْ"، "اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر".

ومن الجوانب الاجتماعية التى أريد أن أتناولها فى هذ الدراسة الأسماء التى كان العرب القدماء يتسمَّوْن بها، وقد وُفِّقْتُ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء: فأما الرجال، وليسمح لى الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أولاً جريًا على العرف الاجتماعى وليس رغبة فى تنقصهن، فها هى ذى أسماؤهم التى تنبهتُ إليها أثناء تصفحى للأمثال الجاهلية (الجاهلية فعلاً أو ظنًّا) الموجودة فى كتاب العسكرى: "سَعْد"، "سُعَيْد"، "عُبَيْدَة"، "دَرِم"، "سَمْلَقَة"، "حُنَيْف"، "مالك"، "زيد مناة"، "عمرو"، "سالم"، "فَلْحَس"، "مادِر"، "سَحْبان"، "قُسّ"، "لقمان"، "المُرَقِّش"، "جُوَيْن"، "عُمَىّ"، "حاتم"، "هَرِم"، "كعب"، "هَبَنَّقَة"، "حُجَيْنَة"، "ربيعة"، "عَدِىّ"، "أبو غُبْشَان"، "جَنّاب"، "عِجْل"، "الأحنف"، "سِنَان"، "حُنَيْن"، "عُرْقوب"، "دُعَيْمِص"، "أسعد"، "فُطْرَة"، "إياس"، "أخزم"، "حُدَاجة"، "قَرْثَع"، "شِظَاظ"، "سَلاّغ"، "عائشة"، "عَثْم"، "مَرْقَمَة"، "جُفَيْنَة"، "حُمَيْق"، "عَوْف"، "كُلَيْب"، "مَرْوان"، "الشَّنْفَرَى"، "السُّلَيْك"، "باقِل"، "مُزَيْقِياء"، "عُتَيْبَة"، "قيس"، "عاصم"، "الحارث"، "حاجب"، "زُرَارة"، "سَدُوم"، "بِسْطام"، "كُلثوم"، "عامر"، "البَرّاض"، "ظالم"، "المُذَلِّق"، "الطُّفَيْل"، "ناشِرة"، "قَصِير"، "حَمَل"، "أَسْلَم"، "ضُبَارة"، "جَدْرَة"، "ابن تَوْضَع"، "الذئب"، "عصام"، "خُرافة"، "عَبّود"، "جَنّاب"، "خُرَيْم"، "حَيّان"، "حوثرة"، "خَوّات"، "الخُرْشُب"، "شَنّ"، "السَّمَوْأَل"، "جَذِيمة"، "النَّطِف"، "لُكَيْز"، "أَسْلَم"، "قَوْضَع"، "ضَبَارة"... إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها خَشِنٌ وَعْر، والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يؤسفنى من كل قلبى أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس هذا بالشىء المستغرب، فقد كان الجاهليون بدوا خشنين، وكان معظم ما حولهم وَعْرا جافيا، فمن أين يمكنهم أن يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيئته وظروفه؟ ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية، ولنكن على ذكر من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن اللاتى شغلن أفئدة الشعراء وأسهرنهم الليالى يتقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن ألسنتهم بالقصائد الخالدة التى أبقت على ذكرهن طوال هذه القرون وستُبْقِى عليها إلى أبد الآبدين ما دامت هناك هذه اللغة العبقرية، لغة الضاد. وهذه بعض ما وجدتُه من أسماء لآنساتنا وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنا): "رَقَاشِ"، "حَذَامِ"، "سَجَاحِ"، "زرقاء"، "حَوْمَل"، "مارِخَة"، "أمّ خارجة"، "مَنْشِم"، "لَمِيس"، "مارية"، "حليمة"، "الزَّبّاء"، "أمّ قرفة"، "ظُلْمَة"، "صُحْر"، "عاتكة"، "شَوْلَة"، "خبيثة"... وهلمّ جرًّا. ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالىّ منها والنسائىّ، قد اختفت من حياتنا تبعا لتغير الأذواق والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخى، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيجة كالتى تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعتز بها أيما اعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حول هـذا الشـخص أو ذاك لِخَلَّةٍ فيه أو لحادثةٍ وقعت له اشتهر بهـا بيـن العـرب حتى ضُرِب به المثـل، ومـن ذلـك الأمثـال التاليـة، وكـثير

منها يقوم على المقارنة وأفعل التفضيل: "آبَلُ من حُنَيْف الحـاتم"، أى أكـثر إبِلاً، "أبخـل مـن مـادِر"، "أبصـر مـن زرقاء"، "أبلغ من سَـحْبان"، "أتْيَـسُ مـن تُيُـوس ثُـوَيْت"، "أحزم من سِنَان"، "أحكم من لقمان"، "أحمق مـن أبـى غبشان، أو من شَرَنْبَث"، "أسْرَق مـن شِـظاظ"، "أسَـعْدٌ أم سُعَيْد؟"، "أضْبَط من عائشـة بـن عَنْـم"، "أطمـع مـن فَلْحَس"، "أعظم فـى نفسـه مـن مُزَيْقِيـاء"، "أفْتَـك مـن الحارث بن ظالم"، "أقْوَد من ظُلْمة"، "أنْكَحُ من حَوْثَرَة"، وهذا المثل يقال للشـخص المِـزْوَاج، "أنْعَـم مـن حَيّـان"، "أينما أُوَجِّـه أَلْـقَ سَـعْدًا"، "بِيَـدِى لا بِيَـدِ عمـرو"، "تجشَّـأ لقمان مـن غيـر شِـبَع"، "دَقُّـوا بينهـم عطـر مَنْشِـم"، أى ثارت بينهم حربُ شؤمٍ مُهْلِكة، ومَنْشِم امرأة كـانت تـبيع العطر، وهو عطـر مشـؤوم، "دم سَـلاّغ جُبَـار"، أى هَـدْر، "دُهْدُرَّيْن سعد القَيْن"، "رِدْ كعبُ، إنك وَرّاد"، يقـال لمـن على شفا الموت، "شَبَّ عمـرو عـن الطـوق"، "شِنْشِـنَةٌ أعرفها من أخْزَم"، "صحيفة المتلمِّس"، وهى كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشىء تُخْشَى من ورائه الهلكة، "صفقة لـم يشـهدها حـاطِب"، "عـادت لعِثْرهـا لَمِيـس"، أى رجعـت لعادتها القديمة، "فى بيته يُؤْتَى الحَكَم"، أى أن لفلان من الكرامة ما يوجب على النـاس أن يـذهبوا إليـه ولا يـذهب هو، "القول ما قالت حَذَامِ"، "لا حُرَّ بِوَادِى عَـوْف"، يقـال للسيد المسـتبد الـذى لا ينهـض لـه أحـد، "همـا كنَـدْمانَىْ جَذِيمة"، "ولو بقُرْطَىْ ماريـة"، يقـال للشـىء النفيـس لا يمكن التفريط فيه ولـو دُفِـع فيـه أغلـى ثمـن، "يـا ويلتـا! رآنى ربيعة"، "ما يوم حليمةَ بِسِرّ"، و"اليوم" هنـا بمعنـى "المعركـة"، و"أيـام العـرب" هـى معـاركهم وحروبهـم المشهورة، والمقصـود بـــ"يـوم حليمـة" المعركـة الـتى ضَمَّخْتْ فيها الأميرة حليمة بنت الحارث بـن جَبَلَـة رجـالَ جيش أبيها بالعطر غـداة انطلاقهـم للحـرب، وكـان يومـا مشهورا ضُرِبَ به المَثَل.

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضا: ومن أسماء المواضع التى وردت فى أمثال الجاهليين "أَبَان" (جبل)، "شَجِعَات"، "شَرْج"، "حَضَن" (اسم جبل)، "أَجَلَى"، "أَضَاخ"، "مكة"، "عَرَارِ" (اسم بقرة)، "كَحْل" (اسم بقرة أخرى)، "بَرَاقش" (اسم كلبة)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَتَان" (وهو الاسم الذى أطلقه طه حسين على دارته فى الجيزة. وقد أخذه من المثل القائل: "تسألنى (أىْ ناقتى) برَامَتَيْنِ سَلْجَمًا"، أى تطلب شيئا ليس هذا موضعه)، "شُبَيْث"، "الأَحَصّ"، "ثَهْلان" (جبل)، "خُمَيْرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم هَضْبتين)، "صَدّاء" (اسم ماء)، "بَرِّيَّة خُسَاف"، "هَرْشَى"، "بَلْدَح"، "شَعْفان"، "لُبَد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرْج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفّان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "تَبَالَة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية فى الجزيرة العربية فى ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التى كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين. وفى كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرَوْن طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا. والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفةٍ فى مَثَلٍ مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة. ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذِكْرٌ لحيوان أو طير: فمنها "استَنْوَقَ الجَمَل"، "أَتْبِع الفَرَسَ لجامها"، "إذا نام ظالعُ الكلاب"، "أَرْغُوا لها حُوَارِها تَقِرّ" (الحُوَار: ولد الناقة)، "أَصِيدَ القنفذُ أم لُقَطَةٌ؟"، "أَنْكَحْنا الفَرَا، فسنرى" (الفَرَا:

الحمار الوحشى)،"أخوك أم الذئب؟"، "أخذه الله أَخْذَ سَبْعة" (السَّبْعة: اللبؤة)، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ"، "أَطْرِقْ كَرَا، إن النعام فى القرى" (الكَرَا: الواحد من طيور الكِرْوَان. والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامى، بل أقصد قوما يستحقون الكلام)، "البُغَاث بأرضنا يستنسر" (البُغَاث: طير صغير ضعيف)، "أَدْنَى حماريكِ ازجرِى"، "آمَنُ من حمام مكة"، " آلَفُ من غراب عُقْدَة"، "آكَلُ من سوس، أو من فأر، أو من حوت، أو من الفيل"، "بالت بينهم الثعالب" (ثار بينهم الشر)، "خَرِئَتْ بينهم الضبع" (نفس المعنى السابق)، "أَبْعَدُ من بَيْض الأَنُوق" (الأَنُوق: ذَكَر الرَّخَمَة)، "أَبْصَر من عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس"، "أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط"، "أَبَرّ من الهِرّة، أو من الذئبة"، "أبكر من الغراب"، "أبخل من كلَب"، "أبلد من السُّلَحْفاة، أو من الثور"، "أبيض من دجاجة"، "أبخر من صقر، أو من فهد"، "أَبْوَل من كلب"، "تركته على مِثْل مِشْفَر الأسد" (أى عُرْضَةً للهلاك)، "تقلَّدَها طَوْقَ الحمامة" (لزمه عارها إلى الأبد)، "أَتْبَع من تَوْلَب" (ولد الحمار، لأنه يتبع أمه لا يفارقها أبدا)، "أتعب من راكب فَصِيل" (ولد الناقة، لأنه لم تتم رياضته بعد)، "أتخم من فصيل" (لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أَتْيَسُ من تيوس تُوَيْت"، "الثور يُضْرَب لمّا عافت البقر" (يقال فى من يُؤْخَذ بذنب غيره)،"أثبت من قُرَاد"، "أثقف من سِنَّوْر" (وهو القط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبدا)، "الجحشَ لَمّا بذَّك الأعيار" (اِرْضَ بما هو متاح لك واستكف به عما لا تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صِفْرِد، أو من كَرَوان (طائران)، أو من ثُرْمُلة (الثعلب)، أو من الهِجْرِس (القرد)، أو من الزُّبّاح (ولد القرد)"، "أجرأ من ذباب، أو من خاصِى الأسد"، "أَجْوَل من قُطْرُب" (دابة لا تكف عن التجوال ليلا أو نهارا)، "أَجْوَع من لَعْوَة (وهى

الكلبة)، أو من الذئب، أو من قُرَاد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشة، أو من حمار، أو من عقرب، أو من نملة، أو من راعى ضأن"، "حمارٌ اسْتَأْتَنَ" (أى تحول إلى أَتَان، وهى أنثى الحمار)، "حتى يجتمع مِعْزَى الفِزْر" (الفِزْر: رجل تفرقت مِعْزَاه فى كل مكان، وهو مثل يُضْرَب للاستحالة)، "حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوَان" (مثل لمن يحال بينه وبين مراده. والنَّزَوَان: الوثوب)، "حُمَيِّر الحاجات" (للشخص الذليل الممتهَن فى الأشغال الشاقة)، "أحمق من الضبع، أو من الرَّخِل (أنثى ولد الضأن)، أو من نعجة على حوض، أو من أم الهِنْبِر (والهنبر: الجحش، وأمه هى الأتان)، أو من الجهيزة (أى الذئبة)، أو من حمامة، أو من نعامة، أو من رَخَمة، أو من عَقْعَق"، "أكيس من الرَّخَمة"، "أحذر من قِرِلَّى (طائر يغوص فى الماء فيستخرج السمك)، أو من ذئب، أو من غراب، أو من عَقْعَق، أو من ظليم (ذكر النعام)"، "أحزم من القِرِلَّى، أو من الحرباء"، "أَحْيَر من الضبّ، أو من الوَرَل" (وهما حيوانان إذا خرجا من جحرهما لم يهتديا إليه ثانية)، "أحيا من الضبّ" (أى أطول حياةً منه)، "أحول من الذئب" (لبراعته فى الحيلة)، "أحول من أبى براقش" (لأن ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أحرس من كلب"، "أحرص من ذئب، أو من كلب، أو من خنزير"، "أحطم من الجراد"، "أحقد من جمل"، "أحنّ من شارف" (وهى الناقة المسنّة)، "أَحْكَى من قرد"، "أَحْمَى من است النمر، أو من أنف الأسد"، "خَلِّه دَرَجَ الضبّ" (دعه على عماه)، "الخيل أعرف بفرسانها"، "الخيل مَيَامِين"، "الخروف يتقلب على الصوف" (مَثَلٌ يُضْرَب للتقلب فى النعمة)، "أخفّ من فراشة"، "أخفّ رأسًا من الذئب، أو من الطائر" (إذ أقل شىء يوقظهما)، "أخفّ حِلْمًا من بعير، أو من العصفور" (أى أنهما قليلا العقل)، "أخرق من الحمامة" (لأنها لا

تحسن بناء عشها)، "أخلف من بول الجمل"، "أخلف من ثِيل الحَمَل" (الثِّيل: كيس عضو الحَمَل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أخلف من الصقر" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أخبث من ذئب الغَضَى"، "أخون، أو أختل، أو أخبّ من الذئب"، " أخبّ من ضبّ، أو من ثُعَالَة" (وثعالة: الثعلب)، "أخيل من ديك، أو من غراب"، "أخطأ من ذباب، أو من فراشة"، "أخطف من عُقَاب، أو من قِرِلَّى"، "أخشن من شَيْهَم" (وهو ذكر القنفذ)، "أَدَبّ من قُرَاد، أو من عقرب، أو من ضَيْوَن (أى السِّنَّوْر)، أو من قَرَنْبَى (دُوَيّبّة تشبه الخنفساء)"، "الذئب يُدْعَى: أبا جَعْدَة" (لا تغتر بما يظهره فلان من الكرم، فإنما هو كالذئب الغدار"، "الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل" (القليل إلى القليل يصبح مع الأيام كثيرا. والذَّوْد ثلاث نُوقٍ أو أكثر من ذلك قليلا)، "الذئب يَأْدُو للغزال" (يخدعه)، "ذَلَّ من بالت عليه الثعالبُ"، "أذلّ من عَيْر، أو من حمار مقيَّد، أو من بعير السانية" (أى الساقية)، "أرْوَى من نعامة (لأنها قليلة العطش)، أو من الضبّ (لأنه، كما يقولون، لا يشرب أبدا)، أو من حية، أو من الحوت"، "أرسح من ضفدع" (والرَّسَح: خفة العَجُز)، "أَزْنَى من هِجْرِس، أو من هِرّ"، "أزهى من غراب، أو من وَعَل (وهو الَتيس الجبلى)"، "سقط العَشَاء به على سِرْحان" (السِّرْحان: الذئب. أى أنه بدلا من أن ينال ما كان يبغيه قد أصابه مكروه)، "سواسية كأسنان الحمار" (فى الشر)، "سَمِّنْ كلبك يأكلك"، "أَسْمَع من سِمْع (ابن الذئب من الضبع)، أو من قُرَاد (لأنه، فيما يقولون، يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم)، أو من فرس (إذ كانوا يعتقدون أنه يسمع صوت الشعرة التى تسقط عن بدنه)"، "أَسْلَح من حُبَارَى، أو من دجاجة"، "أسبح من نُون" (أى الحوت)، "أسهر من جُدْجُد" (صَرّار الحقل)، "أشمّ من النعامة، أو من ذئب، أو من هِقْل (ذكر النعام)"، "أشره

من الأسد"، "أشرد من خَفَيْدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكر من كلب"، "أشدّ من الفيل"، "أشرب من الهيم" (الإبل العطاش)، "أَصْوَل من جمل" (يُضْرَب به المثل فى شدة العضّ)، "أصبر من الضبّ، أو من حمار"، "ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَه" (يُضْرَب مثلا لمن لا يهتدى فى كلامه أو فى فعله. والدِّرْص: ولد الفأر، لأنه إذا خرج من جحره لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قَدْر اسْتِها"، "أضلّ من ضبّ، أو من وَرَل"، "أطول ذَماءً من الضبّ، أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفساء" (لأنها لا تموت سريعا، بل تظل تتحرك فترة طويلة بعد قتلها)، "أَطْيَر من عُقَاب، أو من حُبَارى" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متناوحة فى زمنٍ جِدِّ قصير)، "أَطْيَش من فراشة، أو من ذباب"، "أطفَس من العِفْر" (الخنزير)، "ما بقى منه إلا ظِمْءُ حمار" (لم يبق فيه إلا القليل)، "أظلم من حية، أو من وَرَل" (لأنهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)،"أعزّ من بَيْض الأُنوق، أو من الغراب الأعصم"، "أعطش من النقّاقة (أى الضفدع، لأنها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنه يكون فى القفر فلا يرى الماء أبدا)، أو من حوت"، "أَعْيَث من جَعَارِ" (وهى الضبع، فهى إذا وقعت فى الغنم أفسدت أيما إفساد)، "أعجل من نعجة إلى حوض"، "أعمر من ضبّ (إذ كانوا يقولون إنه يعيش أطول كثيرا من مائة عام)، أو من قُرَاد (فقد كانوا يعتقدون أنه يعيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كانوا يظنون أنه يعيش خمسمائة عام)"، "أغرّ من ظبيٍ مُقْمِر"، "أَغْوَى من غوغاء الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أغلم من ضَيْوَن" (ليس أشد شهوة من السِّنَّوْر فيما يقولون)، "أفسد من الجراد، أو من السوس، أو من الأَرَضَة، أو من الضبع"، "أَفْسَى من ظَرِبان، أو من خنفساء، أو من نمس"، "قف الحمار على الردهة، ولا تقل له: سَأ"

(الردهة: نقرة الماء التى يشرب منها. ومعنى المثل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تخف عليه)، "أقود من مُهْر"، "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "كل شاةٍ تُنَاط برِجْلها"، "الكلب أَحَبّ أهله إليه الظاعن"، "أكيس من قِشَّة" (جَرْو القرد، وهو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكسب من نمل، أو من فأر"، "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب" (للذل بعد العز)، "لو تُرِك القَطَا لنام" (هذا مثل قولنا: نوم الظالم عبادة. والقَطَا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلد النمر" (أبديتُ له العداوة الشديدة)، "ألين من خِرْنِق" (ولد الأرنب)، "أمسخ من لحم الحُوَار"، "أمنع من عُقَاب الجو"، "نابٌ، وقد يقطع الدَّوِّيَّةَ النابُ" (الناب: الناقة المسنّة، والدَّوِّيَّة: الفلاة السحيقة. والمعنى أنه، على كبر سنه وضعفه، قد يصلح للسفر الطويل المرهق) ، "أنعس من كلب"، "أنبش من جَيْأَل" (الضبع مشهورة بنبش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من الظِّربان"، "أنزى من ظبى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القَفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ تمرةَ الغراب" (حصل على أحسن شىء، لأن الغراب، فيما يقولون، ينتقى أجود تمرةٍ ويأكلها)، "أَوْلَغ من كلب"، "هما كركبتى البعير" (أى متساويان فى كل شىء)، "هما كفَرَسَىْ رِهَان" (دائمَا التنافسِ فى الخير)، "أهون من حُنْدُج (وهى القملة)، أو من ضرطة عنز"، "لا تقتن من كلب سوءٍ جَرْوًا"، "لا ناقتى فيها ولا جملى" (أمر لا يهمنى)، "لا ينتطح فيها عنزان" (قضية محسومة لا جدال فيها).

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين فى عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمى والثقافى الذى تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض

الأخطاء فى تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعى، إذ إن العرب ليسوا بِدْعًا بين البشر، فهم يجمعون فى معلوماتهم بين الخطإ والصواب. ولكن يكفيهم شرفا وفضلا أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا فى الأمثال التى سلفت، والفرق بين ما يميز الذكر عن الأنثى فى الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقا لما جاء فى المثل القائل: "اسْتَنْوَق الجمل"، أو "حِمارٌ اسْتَأْتَن" (أى ظهرت على كل منهما علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقة، والثانى أن يكون أتانا)، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان: فالحُوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب من الإبل، على عكس الناب، التى هى الناقة المسنة، ثم الشارف، التى تأتى بعد ذلك. وهناك الدِّرْص والحِسْل والسِّمْع والفُرْعُل والهِجْرِس والجحش والظبى والمُهْر والخِرْنِق والجَرْو والحَلَم، وهى صغار الفأر والضبّ والذئب والضبع والقرد والحمار والغزال والحصان والأرنب والكلب والقُرَاد على التوالى. كذلك هناك الجمل والناقة، والأُنوق والرَّخَمَة، والأسد واللبؤة، والحصان والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامة، والذئب والجَهيزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف أنهم استطاعوا التمييز بين طباع كل حيوان وغيره حتى فى مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرِّىّ، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلا، وإن اشتركت بعض الحيوانات فى هذه السمة أو تلك من تصرفاتها... إلخ مما مر بيانه من الأمثال التى أوردناها آنفا. ويمكن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شجر ونبات: "ترى الفتيان كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الدَّخْل" (أى أن المهم هو مخبر

الإنسان لا مظهره)، "أشبهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا" (والأُسَيْمِر: تصغير "أَسْمُر"، وهى جمع "سَمُرَة"، نوع من الشجر ينبت فى بلاد العرب)، "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "عَصَبْتُه عَصْبَ السَّلَمة" (والسَّلَم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره فى الدباغ، ويسمَّى ورقه: "القَرَظ")، "أَرْخِ يديك واسْتَرْخ، إن الزناد من مَرْخ"، "فى كل شجرةٍ نار، واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار" (والمَرْخ والعَفَار: شجرتان تُقْدح أغصانهما لاستخراج النار منها)، "أشعث من قَتَادة" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان" (شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها)، "أخبث من ذئب الغَضَى" (والغَضَى: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التى تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية: فمن ذلك قولهم: "أبعد من العَيُّوق"، "أَتْلَى من الشِّعْرَى"، لأنها تتلو الجوزاء، "أُرِيها السُّهَا، وتُرِينى القمر"، "أرقّ من رقراق السراب"، "أَطول صحبةً من الفرقدين"، لأنهما نجمان لا يفترقان، و"بنات نعش": كواكب معروفة، "بَرْقٌ خُلَّب"، وهو البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر، "أَرِنيها نَمِرة، أَرِكَها مَطَرة"، ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الممطر منها وغير الممطر. وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت تعتمد على المطر فى المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال فى مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون فى خيام منصوبة فى العراء لا فى بيوت

تعوق أعينهم عن النظر الحر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء.

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلا نراهم يقولون: "أن تَرِد الماءَ بماءٍ أكيس" لمعرفتهم أنهم متى انقطعوا عن الماء فى باديتهم المتناوحة التى كثيرا ما يعزّ فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون. وبالمثل نقرأ فى المَثَل التالى أن "آخرها (أى آخر الإبل الواردة على الماء للسقى) أقلّها شِرْبًا"، إذ تَرِدُ وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَرِدُ ولم يَعُدَ الماء صافيا كما كان للإبل التى شربت مبكرة، فضلا عن أن تأخير السقى هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هناك عين ماء طيّبة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماءٌ ولا كصَدّاء"، "إن أَضَاخًا منهلٌ مورود"، "أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرج". وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء: "بئس مَقَام الشيخ: أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أنه لا يليق بك أن تزاول عملا لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقْيَاك بالحبل، الذى قد ينقطع فى يدك فيصيح الناس بك أن "أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أعد الحبل إلى مكانه من البَكَرة. ومن أمثال الاستقاء أيضا قولهم: "أَلْقِ دلوك فى الدِّلاء". كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه الحاجة مثلما مضى بيانه فى الأمثال التى قرأناها معا، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتل من أذهانهم واهتمامهم مكانا ركينا.

ومن الجوانب التى تتعلق أيضا بالبيئة العربية القديمة ما كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم على ما هو متوفر فى هذه البيئة من ثروات أو إمكانات

طبيعية: خذ عندك مثلا الدبغ، الذى جاء فى أمثالهم عنه قولهم: "إنما يُعاتَب الأديم ذو البَشَرَة"، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذى يراد دبغه، فإن كانت له بَشَرَة، وهى ظاهر الجلد (على عكس الأَدَمَة، التى هى باطنه)، صلح دبغه، وإلا لم يحتمل الدِّبَاغ وتمزق. كذلك لا بد، فى عمية الدباغ، أن يُكْشَط اللحم تماما من أديم الجلد ولا يترك عليه أى بقايا منه، وإلا فسد الجلد سريعا: "أحمق من الدابغ على التحلىء". والتحلىء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هذه الحالة لا يصل إليه الدباغ. وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر "القارظ" على النحو التالى: "إذا ما القارظ العَنَزِىُّ آبَا"، وهو جامع القَرَظ، أى ورق شجر السَّلَم المستعمل فى عملية الدباغ. والمثل للوعد الذى لا يمكن أن يتحقق لأنه معلق على شرط مستحيل، فالقارظ العَنَزِىّ لم يعد من جولته فى جمع القَرَظ حتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات فى الطريق. وهناك أيضا المثل التالى: "أَرْتِعَنْ أَجَلَى أَنَّى شئت"، أى أن الموضع المسّمَّى: "أَجَلَى" هو من المواضع الجيدة الصالحة للرعى فى أى وقت. ومنها كذلك: "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان". وكان للرعى أصوله التى لا بد للراعى من مراعاتها، وإلا فسد عمله: "أساء رَعْيًا فسقى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشْبِع إبله من الكلإ كما ينبغى واضطُرّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضَرَّ بها ضررا شديدا. والإقصاب: أن تمتنع إبل الراعى عن الشرب. كذلك كانوا يحلبون ماشيتهم بأنفسهم: "حلبْتُها بالساعد الأشدّ"، "أُحْلُبْ حَلَبًا لك شَطْره" (و"الحَلَب" هو ما يُحْلَب من اللبن)، "حَلَبَ الدهرَ أَشْطُره".

ومن المهن التى كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل: "جِبَابٌ، فلا تُعَنِّ آبِرًا"، والآبر هو ملقّح

النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْع فيها، بل الموجود جِبَابٌ فحسب، أى جُمّار، ومن ثم فلا فائدة فى التأبير أصلا. ومن هذه المهن أيضا الحُدَاء: "كالحادى، وليس له بعير"، والحادى هو سائق الإبل الذى يحدوها، أى يغنِّى لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها الضعف والكلال. وهذا المثل يشبه قولنا فى الأمثال العامية: "باب النجّار مخلّع". أما المَثَل الذى وجدتُه عن "الحَذّاء" فيجرى عكس هذا، إذ يقول: "من يكن الحذّاء أباه يجد نعلا". والحدادة مهنة أخرى من المهن التى عرفها العرب: "إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح"، أى لا تصدق كل ما تسمع، فكثيرا ما يقول الناس كلاما ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كى يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحابل" و"النابل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالنَّبْل: "اختلط الحابل بالنابل"، ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس" وصانعه: "أَعْطِ القوسَ باريها"، وهو كما نقول فى مثلنا العامى: "أعط العيش لخبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قبل الرمى يُرَاش السهم"، ورابع يتحدث عن "الكنانة": "قبل الرمى تُمْلأ الكنائن".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبا بدائيا بطبيعة الحال: "يا طبيب، طِبَّ لنفسك"، وكذلك البيطرة: "أشهر من راية البَيْطار"، "أهون من ذَنَب الحمار على البَيْطار". وكان من طبّهم الكَىّ: "آخر الدواء الكَىّ"، "قد يَضْرِط العَيْر، والمِكْواة فى النار". كما كانوا يعالجون جَرَب الماشية بما يسمونه "العَنِيّة": "عَنِيّته تَشْفِى الجَرَب"، وهى قَطِران وأخلاط تُجْمَع ويُهْنَأ بها البعير الأجرب. ولعملية الهِنَاء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانئ على دَهْن موضع الجَرَب فقط، بل يعمّ سائر بدن البعير:

"ليس الهناء بالدَّسّ" (والدَّسّ: الاقتصار فى الهِنَـاء علـى المكان المصاب بالجرب). وقد ورد فى مثل من أمثـالهم إشارة لمرض كان يصـيب البعيـر، وهـو "الغُـدَّة": "أغُـدَّةٌ كغُدَّة البعير، وموتٌ فى بيت سَلُولِيّة؟"، أما المثل التـالى فيشير إلى مرض آخر هو "القُلاَب"، وهو داء يصيب الإبل فى رؤوسها فيقلبها إلى فوق: "ما به قَلَبة"، أى أنه سليم لا يشكو من أى داء. وقريب منه داء الصّعَر، وهو داء يأخذ فـى رقـاب الإبـل فيُمِيلهـا: "لأُقِيمَـنَّ صَـعَرَك". وكـان الجاهليون يحبون الوشم، الذى كثيرا ما شبّه الشعراء بـه ما يَرَوْنَه فى أطلال حبـائبهم مـن الخطـوط وآثـار الريـح: "أَثْبَتُ من الوشم". ومن أعمالهم التى كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسـع الخَـرْق علـى الراقع"، وجمع الحطب للنار: "أَخْبَطُ مـن حـاطِب ليـل"، والطحـــن بالرَّحـــا: "أســـمع جعجعـــة ولا أرى طِحْنًـــا"، و"الطِّحْن" هـو الـدقيق، والمعنـى أن هنـاك ضـجة، لكـن ليس هناك دقيق، أى أنها ضجة على الفاضى.

ويتصل بهذه الأمثال تلك التى ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أَبْغَى من إبرة"، والفأس: "أَبْغَى من فأس"، والقِدْح: "أبغض من القِدْح الأول"، والعصا:"أبقى من تفاريق العصا"، والخيط: "أدق من خيط"، والحبل: "إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ"، والحِذَاء: "أدنى من الحذاء"، ورباط النعل: "أدنى من الشِّسْع"، والمِجْمَر (المِبْخَرة): "اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، والخُذْروف (وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه فى مصر بـــ"النحلة"): "أسرع من الخذروف"، والأُثْفِيّة (الحجر الذى كانوا ينصبون منه اثنين تحت القدر): "أَصْبَرُ من الأثافى على النار"، والجَلَم (المقص): "أقطع من جَلَم"، والعصا: "أكثر من تفاريق العصا"، والشفرة: "إنْ وجدتَ لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا"، "والمرآة:

"أنقى من مرآة الغريبة"، والجُلْجُل: "أَتَمّ من جلجل"، والسيف: "تركته على مثل حرف السيف"، والصحيفة: "صحيفة المتلمِّس"، والكنانة (جَعْبة السهام): "قبل الرِّماء تُمْلأُ الكنائن"، والدلو: "قد علِقَتْ دَلْوَك دلوٌ أخرى"، والمِجَنّ: "قلبتُ له ظهر المجن"، والمكواة: "قد يَضْرِط العَيْر والمكواة فى النار".

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التى تتحدث عنها مما وضعتُ يدى عليه أثناء تجوالى فى كتاب العسكرى: "إنْ وجدتُ إليه فا كَرِشٍ"، أى إن وجدتُ إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة فى كرشها. ومن أسماء أطعمتهم "اللَّبَأ"، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: "أَبَى أَبِى اللَّبَأ". ومن أطعمتهم أيضا "الرَّبِيكة"، وهى أَقِطٌ بسمن وتمر يُعْمَل رِخْوًا: "غَرْثانُ، فاربُكوا له"، أى أنه جائع فلا تكلموه فى أى شىء لأن ذهنه مشغول بالجوع والطعام، بل أَعِدّوا له الرَّبِيكَة أوّلاً، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطون تتوه العقول". وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلا عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاما، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعانى من بُرَحاء الجوع وقال: وما أصنع به؟ آكله أم أشربه؟ فطلبت منهم زوجته أن يطعموه أولا. وقد كان، إذ بعد أن أطعموه ارتد إليه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو سعيد محبور. ولدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيق غيره"، وهو طعام سائل يُصْنَع من القمح والشعير على عجل للمسافر والجائع الذى لا يصبر. والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنه لا ينفق من ماله هو ولا يأكل من سَوِيقه بل من سَوِيق غيره، فإنه يسرف ولا يبالى بالاقتصاد. والجَدْح: الشَّرْب. وكانوا يصطادون الضَّبّ ويأكلونه: "ما أبالى أناءَ ضَبّك أم نَضِجَ"، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضبّ"، ويسمون صيده: "حَرْشًا": " هو أعلم بضبٍّ

حَرَشَه؟"، وما فتئ الضبّ يُؤْكَل فى الخليج حتى يومنا هذا. وبالمثل كان العرب فى الجاهلية يصطادون حمار الوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكره فى قولهم: "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "أَخْلَى من جوف حمار"، لأنهم كانوا يلقون بما فى جوفه ولا ينتفعون به. كما كانوا يأكلون "الكَمْأَة"، التى لا يزال الناس هناك يتلذذون بطعمها حتى الآن. وهى، كما تقول المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْر. وهناك نوع منها يسمَّى: "الفَقْع": "أذلّ من فَقْعٍ بقَرْقَرَةٍ"، لأنه يظهر على سطح الأرض فتطؤه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التى وردت بها الأمثال "العسل": "أحلى من العسل، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون"الزُّبّاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالى: "اختلط الخاثر بالزَّبّاد". ومن طعامهم فى الجاهلية أيضا "الدم"، وذلك بعد أن يَفْصِدوه من عِرْق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المُصْران به، ثم يشووه ويأكلوه. وهذا الطعام يسمَّى: "الفَصِيد": "لم يُحْرَم مَنْ فُصِد له"، أى أن الفَصِيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدَّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التى تضر الجسم والتى تسرى إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدُّهْن المذاب فى سِقَاء، وهذا الدهن يسمَّى: "الإِهَالة": "كحاقن الإهالة"، أى أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة فى السِّقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكد الحاقن تماما، عن طريق إيلاج إصبعه فى الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاءَ بسخونتها. كما وردت أمثالهم بـ"الزيت": "أَوْفَى من كَيْل الزيت". كذلك كان "الشعير" من طعامهم، وإن لم يكن من

أشهاها إلى نفوسهم: "كالشعير: يُؤْكَل ويُذَمّ". ومن الفاكهة التى ذكرتها الأمثال "التمر": "كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر" (كقولنا الآن: "يبيع الماء فى حارة السقائين")، "وَجَد تمرةَ الغراب". وقد جاء ذكر "الحَشَف"، وهو أردأ أصنافه، فى مثل آخر: "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ؟"، و"العنب": "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "أَعْجَزُ من مُسْتَطْعِم العنب من الدِّفْلَى"، فالدِّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُرّ. وكان كثير من أهل الجاهلية يَغْرَمون بـ"الخمر"، ويُكْثِر شعراؤهم من التمدح بشربها ويَعُدّونه من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تحريما تاما. ومن أمثالهم فى أم الخبائث قولهم: "ألَذّ من مذاق الخمر".

وللأمثال، فضلا عن الجوانب التى مرت، جانب آخر يمكن أن يُنْظَر إليها منه هو الجانب النفسى والخلقى والاجتماعى: فالمثَل التالى على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة الإنسانية، ألا وهو أهمية الإيحاء الذاتى فى علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص فى اعتباره أن هناك أملا كبيرا فى التغلب عليها: "اكذب نفسك إذا حَدَّثْتَها"، وإلا فليس له مَعْدًى عن الصبر، وهو الدواء الذى لا بد من تجرعه على مرارته: "حيلة من لا حيلة له الصبر". كما أن طبيعة الاجتماع البشرى تقتضى من الإنسان أن يتغاضى عن بعض حقوقه وأن يكون مرنا مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكبيرة حتى تسير عجلة الحياة: "إذا عَزَّ أخوك فهُنْ"، "إذا رأيتَ الريح عاصفًا فتَطَامَنْ"، "أىّ الرجال المهَذَّبُ؟"، "طويتُه على بُلالته"، مع معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُدْرَك"، وأن الطبائع الشخصية عصيّة على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه: "أَعْيَيْتِنى بأُشُرٍ، فكيف

بدُرْدُر؟"، "مِنَ العناء رياضة الهَرِم". ثم هناك العصبية القبلية التى لا يمكن الفَكاك منها، ولذلك قيل فى أمثال الجاهلية: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وهو ما صححه الرسول الكريم عندما حوَّره بعض التحوير فقال إن نُصْرَتك أخاك ظالما إنما تكون بمنعه من الظلم، معطيًا عليه السلام هذا المثل بعدا أخلاقيا عظيما. كذلك هناك المثل التالى الذى يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملا مغرقا فى الواقعية بل فى اللاإنسانية دون مراعاة المثل الأعلى فى قليل أو كثير، وهو: "أَجِعْ كلبك يتبعك". وفى قولهم: "جَلَّى محبُّ نظرَه" تعبير عن حقيقة نفسية تشاهَد فى المحبين، إذ مهما حاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن الناس فإن عينيه تفضحانه. وقد قال الشاعر: "الصَّبُّ تفضحه عيونه". كذلك يحسن بالإنسان، إذا أراد أن يظل عزيزا محبوبا مكرما، ألا يكثر الزيارة للآخرين مهما كانوا يحبونه ويريدونه ألا يقطع رجله عنهم: "زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا"، وألا يُكْثِر كذلك من المُزاح، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحابين: "المُزَاح لقاح الضغائن".

وفى دنيا الزواج والأسرة تطالعنا الأمثال التالية، وهى مأخوذة من واقع الحياة الذى لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: "زوجٌ من عُود خيرٌ من قُعُود"، وهو ما يقال عنه فى أمثالنا العامية: "ظِلّ رجُل ولا ظِلّ حائط"، "العَوَانُ لا تُعَلَّم الخِمْرة"، "بينهم داء الضرائر"، "إن الحماة أُولِعَتْ بالكَنَّة * وأولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّة"، "أضَلّ من مَوْؤُودة"، وهى البنت الصغيرة التى تُدْفَن حية، وكان بعض الجاهليين يَئِدون بناتهم خوفا من الفقر أو العار. على أن هناك مثلا يبدو أنه يعكس اعتقادا راسخا عند العرب منذ قديم الزمان، ألا وهو أن الحظ عليه معوَّل كبير فى حياة الإنسان. ولقد كنت أضيق أشد الضيق بمثل هذا الكلام

وأؤكد دائما أن السعى والتخطيط واليقظة هى عمود كل نجاح، ثم تبين لى أن للحظ دورا لا يُنْكَر فى حياتنا، وأنه قد يرفع أقواما حقُّهم الاتضاع، ويخفض أقواما يستحقون كل خير ورفعة. ذلك أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجرى على غير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمة لا يؤخذ بها فى كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل على حقه، على حين يَرَوْن من لا يستحقون قد سبقوهم سبقا فاحشا دون أدنى مسوِّغ. ومن هنا صحَّ المثل العربى القديم القائل: "جَدَّك لا كَدَّك"، أى أن حظك هو الذى ستكون له الغلبة فى نهاية المطاف، وكذلك قولهم: "اسْعَ بِجَدٍّ أو دَعْ"، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لكِ عَوَيْتُ لم أَعْوِ" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتنس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعصًا يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجاهلية كانوا يخوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخوِّفون أبناءهم العُصَاة بالعفريت والغول وأبى رجل مسلوخة وما أشبه: "لقد كنتُ وما أَخَشَّى بالذئب".

ونختم بما ورد فى الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانِح والبارِح: فالسانح ما مرّ بك من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرّ

من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون بالثانى: "من لى بالسانح بعد البارح؟". كما كانوا يتشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التى خلّفوها، إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة فى أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون به: "أشأم من غراب البَيْن". ولم يقتصر تشاؤمهم على الحيوان والطير، بل كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضا: "أنكد من تالى النجم"، وهو "الدَّبَران"، الذى يتلو نجم "الثريا". كما كانوا يعتقدون فى "البَلاَيَا"، جمع "بَلِيَّة"، وهى الناقة التى كانوا يربطونها عند قبر صاحبها بعد أن يُغَمّوا عينيها، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدتهم أنها بهذه الطريقة تكون جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامة: "المنايا على البلايا"، وهو مثل يُضْرَب للقوم الواقعين فى كرب لا مخلص منه، فهم يشبهون "البليّة"، التى لا مفر لها من الموت. ومن خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن السُّلَيْك بن السُّلَكَة، الشاعر الجاهلى الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظل يعدو يوما وليلة كاملين سابقًا فارسين من فرسان الأعداء لم يستطيعا إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجوما وشيكا من أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدوّ أن يصيب منهم غِرَّة: "أَعْدَى من السُّلَيْك". ومن مبالغاتهم التى تدخل فى باب الخرافات قولهم: "أَبْصَر من الزرقاء" (وهى زرقاء اليمامة المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحِدّته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشأم من الزُّمَّاح" (وفيه إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهل يثرب ويأكل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التالى، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكل من لحمه أحدٌ

حيًّا)، "أَعْمَرُ من حَيَّة" (لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبدا إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!)، "أَعْمَرُ من نَسْر، أو من قُرَاد" (إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعَمَّر خمسمائة عام، والثانى سبعمائة).

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَار العبدى وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى وثعلب والمفضَّل الضَّبِّىّ وأبو هلال العسكرى والزمخشرى والميدانى. وهى كتب تُعْنَى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلا عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقية أو خيالية، وإن كانوا فى بعض الأحيان يعلنون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكرى مرارا، إذ قال مثلا عند تعرضه لقولهم: "أَبْدَح ودُبَيْح": "يقولون: جاء بأبدح ودبيح، إذا جاء بالباطل. ولم يُعْرَف أصله"، أى أن قصته لم تصله. أما فى شرحه للمثل القائل: "بعين ما أَرَيَنَّك" فقد علق قائلا: "معناه: اعْجَلْ. وهو من الكلام الذى قد عُرِف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء". وفى تعليقه على المثل التالى: "أحمق من راعى ضأن ثمانين" نراه يقول: "ولا أدرى لم خُصَّت بالثمانين هنا"...إلخ. ومن هنا نرانا لا نوافق على ما قاله بروكلمان فى الأمثال من أن "من عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة فى حيرة من تفسيرها وإيضاحها" وما فيه من سخرية مبطنة (كارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ 1/ ترجمة د. عبد الحليم النجار/ ط 4/ دار المعارف/ 129)، بل نؤكد أن هذا

الكلام غير صحيح لعدة أسباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هذه القصص دائما كما قلنا آنفا. والثانى أنهم ليسوا هم الذين ألّفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم. والثالث أن العسكرى مثلا، حسبما رأينا معا، قد أعلن عن عجزه فى عدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عن مجرد معرفة معناه فى بعض الأحيان. بل إنهم كثيرا ما يكتفون بإيراد المثل دون إضافة أية كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفسه ما نقوله ردًّا على ما كتبه نيكلسون فى ذات الموضوع، إذ جاء فى كتابه: "A Literary History of the Arabs" أثناء كلامه فى هذه المسألة إن هذه الأمثال "نادرا ما تستغنى عن الشرح، على حين أن ما كُتِب من تعليقات عليها إنما هى من عمل علماء وضعوا نُصْبَ أعينهم أن يشرحوها مهما كلفهم ذلك، رغم أن الظروف التى قيلت فيها قد نُسِيَتْ تماما" (A Literary History of the Arabs, Cambridge University Press, 1969, P. 31).

أسْجاع الكُهّان

الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الدين كانوا يقومون على سِدَانة معابد الأوثان فى الجاهلية، وكان العرب الوثنيون يلجأون إليهم فى حسم ما ينشأ بينهم من منافرات أو خلافات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل ما يقع لهم فى نومهم من رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدتهم على معرفة ما يخبئه الغيب من أحداث أو أشياء... وما إلى ذلك مما كانوا يحصلون على جُعْلٍ فى مقابله. وكان هؤلاء الكهان يجيبون على ما يوجَّه إليهم من استفسارات بكلام مسجوع يُرَاعَى فيه عادةً أن يكون موجَزًا غامضًا يحتمل وجوها متعددة من التفسير، فضلا عن احتوائه على بعض الغريب من اللفظ، بحيث يستطيع الكاهن عند اللزوم أن يقول إنه لم يقصد هذا المعنى مثلا بل ذاك، ومن ثم لا يَظْهَر لقُصّاده وطالبى عونه أنه يخطئ كغيره من الناس وأنه ليس بينه وبين عالم الغيب أى اتصال. وقد وردت أقاويل منسوبة إلى هؤلاء الكهان فى مناسبات وقضايا مختلفة كما فى الخبر المروىّ عن الكاهن الخُزَاعِىّ، الذى نَفَّرَ بين هاشم جد النبى عليه السلام وأُمَيّة بن عبد شمس، وجاء فيه: "وَلِيَ هاشمٌ بعد أبيه عبدِ مناف ما كان إليه من السِّقَاية والرِّفَادة فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه، وكان ذا مال، فتكلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَمِت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسِنّه وقَدْره، فلم تَدَعْه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُودِ الحَدَق ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين. فرَضِىَ بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جَدّ عمرو بن الحَمِق (الصحابى

المعروف)، ومنزله بعُسْفان (بين مكة ويثرب). وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزَّى الفِهْرِىّ، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِر، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشمٌ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية".

ومنه كذلك ما قيل عن تكهُّن عوف بن ربيعة الأسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجرى القصة على النحو التالى: "كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملكَ بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كلَّ سنة لما يحتاج إليه. فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يَجْبِي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتِهَامة، فطردوا رسله وضربوهم، فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتِهم وخِيَارَهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: "عبيدَ العصا"، وأباح الأموال وصيَّرهم إلى تِهَامَة وحبس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِيك عليهمو ** وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردّهم إلى بلادهم. فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: يا عبادي. قالوا: لبيك ربَّنا. فقال: مَن الملك الصَّلْهَب (الشديد)، الغلاّب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الربرب (أى قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غدًا أول من يُسْتَلب؟ قالوا: ومن هو ربَّنا؟ قال: لولا تَجَيُّشُ نفسٍ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية (أى علانية).

فركبوا كل صَعْبٍ وذَلُول حتى بلغوا عسكر حُجْر فهجموا عليه في قُبَّته فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعرُّض هند بنت عتبة للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبةٍ ظنَّها فيها، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضى ببراءتها فعادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذى كان منه فى حقها: "كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن، فقال يوما في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يغشى البيت، فلما وجد المرأة نائمة ولَّى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند وأنَّبها وقال: مَنْ هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبَهْتَني، وما رأيت أحدا قطّ. قال: الحقي بأبيك. وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوها: يا بُنَيَّة، العارَ وإن كان كذبا. بُتِّيني شأنَك، فإنْ كان الرجل صادقا دسَسْتُ عليه من يقتله فيقطع عنك العار، وإن كان كاذبا حاكمْتُه إلى بعض كُهّان اليمن. قالت: والله يا أبَتِ إنه لَكاذب. فخرج عتبة فقال: إنك رميتَ ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تبيّن ما قلتَ، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف. فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند وكسَفَ بالُها، فقال لها أبوها: أيْ بُنَيَّة، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت، والله ما ذلك لمكروه قِبَلِي، ولكنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَني بسِمَةٍ تَبْقَى على ألسنة العرب. فقال لها أبوها: صَدَقْتِ، ولكني سأخْبُره لك. فصَفَّر بفرسه، فلما أدْلَى عَمَدَ إلى حَبّةِ بُرٍّ (قَمْح) فأدخلها في إحْليله ثم أوْكى (رَبَط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عُتْبَة: إنا أتيناك في أمر، وقد خبأنا لك خبيئة، فما هي؟ قال: بُرَّةٌ في كمَرَة. قال: أريد أبْيَنَ من هذا. قال: حبّة بُرٍّ في

إحليل مُهْر. قال صَدَقْتَ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك. حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: انهضي غير رَقْحَاءَ (فاجرة) ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنثرت يده من يدها وقالت: إليك عَنِّى. والله لأحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية".

ومن ذلك أيضا ما رُوِىَ عن سَطِيح الذئبى الغَسّانى من أنه "لما كان ليلةُ وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سَطِيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنِْ ** يا فاضل الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ

أتــاك شيخ الحي من آل سَنَنْ ** أبيض فضفاض الرداء والبــدنْ

رسول قَيْل العجم يَهْوى للوَتَنْ ** لا يرهب الرَّعْد ولا رَيب الزمـن

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت...إلخ".

أما فى القصة التالية فنرى الكاهن يحذِّر بنى الحارث بن كعب من الإغارة على بنى تميم، وإلا تعرضوا للهزيمة المُرّة على أيديهم: "كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيمَةٍ (قافلة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فأوقع كسرى بهم وقتل المقاتلة، وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها. وبلغ ذلك بني الحارث بن كعب من مَذْحِج، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اغتنموا بني تميم. فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن ريان في عسكر عظيم وساروا يريدون بني تميم، فحذّرهم كاهن كان مع الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسيرون أعقابا (أى بعضكم فى إثر بعض)، وتغزون أحبابا، سعدا ورَبَابا، وتَردُون مياها جِبَابا (جمع "جُبّ"، وهو البئر)، فتَلْقَوْن عليها ضِرابا، وتكون

غنيمتكم ترابا، فأطيعوا أمري ولا تغزوا تميما. ولكنهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهُزموا هزيمة نكراء".

ولا شك أن أى عاقل، حتى لو لم يَدِنْ بالإسلام، سينُكْرِ ما جاء فى مثل تلك الأخبار من أن هذا الكاهن أو ذاك كان يستطيع أن يعلم الغيب، إذ الغيب شأن من شأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أحدا من عباده أن ينفذ من خلال حُجُبه إلا إذا أوحى الله بشىء من ذلك لنبى من أنبيائه. ونبينا عليه السلام مأمور فى القرآن بأن يقول: "وعنده (أى عند الله) مفاتح الغيب، لا يعلمها إلا هو"، "قل: لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيبَ إلا الله"، "قل: ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يُفْعَل بى ولا بكم"، "ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِىَ السوء"، "عالِم الغيب (أى الله سبحانه) فلا يُظْهِر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى من رسول، فإنه يَسْلُك من بين ومن خلفه رَصَدًا* لِيَعْلَم أنْ قد أبلَغوا رسالات ربهم"... إلخ. فماذا يكون الكاهن بالنسبة للنبى، وبخاصة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهم إنما يستعينون فى مهمتهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن ينزل عليهم الوحى من السماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ بل إن الكافر بالله لا يمكنه، لو أصغى لصوت العقل والمنطق والواقع، أن يصدّق بشىء من هذا السخف الساخف الذى لا يجوز إلا فى عقول الجهلة والطّغام! وعلى هذا فنحن مضطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضا فى تلك الأخبار ذاتها من كلام منسوب للكهنة فى هذه الظروف من مثل: "عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلاً عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفُرْس مُقَاما، ولا الشام لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت

آت"، أو "انهضي غير رَقْحَاءَ ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية"، لأنه إذا كانت الواقعة لم تحدث أصلا فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكلام المتصل بها قد قيل! أما قول الكاهن الذى نفَّر بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عن أن يكون حُكْمًا فى قضية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل فى باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الذين ينكرون صحة هذه الأسجاع ويَرَوْن أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطإ مطلق، وإن قام رَفْضُ الدكتور شوقى ضيف لها على أساس طول الزمن المنصرم ما بين صدور الأقاويل المنسوبة إلى أولئك الكهان والوقت الذى سُجِّلَتْ فيه (العصر الجاهلى/ ط 7/ دار المعارف/ 224)، وهو سبب غير كاف كما قلنا عند حديثنا عن الأمثال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ من كثرة ما كان أصحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، مما من شأنه أن يجعلها أَحَدّ وأنشط من الذاكرة التى لا يستخدمها أهلوها على هذا النطاق الواسع. كما أن هذه الأقاويل، حسبما بيّنا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد من الحفظ، فضلا عن أنها ليست من الطول ولا ما احتفظت به الكتب من نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للذاكرة عَنَتًا فى الاحتفاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه، واستطراف المسلمين لها لمخالفتها لما يعتقدون ولصلاحيتها هى ومن كانوا ينطقون بها لأن تكون موضوعا للسخرية والتهكم وفرصة لعرض عقيدة الدين الجديد والمقارنة بينها وبين تلك السخافات الشيطانية المتخلفة، وهو ما يفسّر، فى ناحية منه على الأقل، اشتمال كتب الأدب والتاريخ على هذه الطائفة من الأقاويل المنسوبة إلى الكهان رغم أن بعضها، كما رأينا بكل وضوح، لا يمكن أن يكون صحيحا!

وقد يُفْهَم من كلام بعض الدارسين أن هذه الأقاويل هى أساس السجع أو أنها كانت النصوص المسجوعة

الوحيدة فى النثر الجاهلى، فقد كتب مثلا المستشرق الألمانى كارل بروكلمان أن "السجع هو القالب الذى كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم" (تاريخ الأدب العربى/ 1/ 51)، وهو ما يتابعه عليه عبد الستار فوزى ود. عز الدين إسماعيل، إلا أنهما لم يكتفيا بذلك، إذ ذكر الأول أن "تلك الأسجاع حتى البقية التى استُعْمِلت فى عصر الإسلام الأول قد نبعت جميعا من سجع الكهان الجاهليين يوم كانت تلك الأنغام المتوازنة ضرورية لتمثيل الكاهن ولا غنى عنها لتصوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصدره من أقضية وأحكام، وما يشيع عنه من وحى وإلهام" (عبد الستار فوزى/ السجع وأطوار استعماله فى أدب العرب/ الشركة المركزية للطباعة والإعلان/ بغداد/ 1966م/ 32)، كما ورد فى حديث الثانى عن السجع وسيطرته على النثر الفنى فى العصور الإسلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرِف فى الجاهلية قديما باسم سجع الكهان" (د. عز الدين إسماعيل/ المكونات الأولى للثقافة العربية- دراسة فى نشأة الآداب والمعارف العربية وتطورها/ ط 5/ أبوللو للنشر والتوزيع/ 1414هـ- 1993م/ 42)، وإن كان فى موضع آخر قد أضاف "الأمثال" أيضا إلى "سجع الكهان"، وذلك فى النص التالى الذى يَعْرِض فيه لأوّليّة الشعر العربى وكيفية نشوئه، إذ قال: "هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربى قد نشأ فى جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التى كان يستخدمها الكهنة فى رُقَاهم وتنبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة فى بعض الأحيان التى كان تجرى على الألسنة مجرى المثل" (المرجع السابق/ 9). وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع فى النثر العربى، وهل يرجع فعلا إلى "سجع الكهان" وحده أو إليه هو و"الأمثال" فقط كما فى النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلا عن أن خُطَب الجاهليين ومنافراتهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة فى غير

قليل من الأحيان. وعلى هذا فالتفكير العلمى الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكما كهذا فنضلّ فى بَيْدَاء الوهم. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفا للجاهليين وأنه كان مستعملا لا فى كلام الكهان والكاهنات وحده، ولا فى كلامهم والأمثال فقط، بل فى الخُطَب والمنافرات والخصومات أيضا، إذ هو يلبى حاجة فطرية فى النفس، "فالكلام الموسيقى المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسط والقبض، تبعثه فى يسرٍ من أعماقها سَيّالاً متداركا كأنما تجد فى تناغم ألفاظه ورنين أجراسه وتعاطف حروفه متنفَّسًا لهذا الجَيَشَان العنيف وتطبيقًا لهذه الثورة الصاخبة" (على الجندى/ صُوَر البديع- فن الأسجاع/ دار الفكر العربى/ 1/ 9)، وليس ثمة ما يلجئنا إلى القول بأن السجع نشأ فى أحضان السِّحْر والكهانة والمعابد وما إلى ذلك كما يردد بعض الدارسين العرب تأثرا بما يقوله المستشرقون فى هذا المجال، لأن ما كان مرتبطا بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانة أو معابد، وبخاصة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسيقية والرنين والتوازن مما يجعلها بيئةً جِدَّ مناسبةٍ لازدهار السجع والشعر.

السجع إذن لم يكن مقصورا على الكهان، بل استخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضاربو الأمثال أيضا، ذلك أنه مجرد أداة، مَثَلُه فى هذا مَثَلُ الجمل والسيف والقلم وغيرها من الوسائل والأدوات التى يصطنعها البشر فى حياتهم، لا يحمل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية فى حد ذاته، وبخاصة إذا تنبهنا إلى أنه فى القرآن غيره فى الكهانة: فهو فى الكهانة يُسْتَخْدَم فى الكذب والإيهام بالتنبؤ بالغيب وفى التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشبه، على حين أنه فى القرآن يستعمل فى الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة

والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التى رفع لواءها القرآن الكريم والتى تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتها. ثم إن القرآن قد نزل بنفس اللغة التى كان الكهان يتخذونها، وهى اللغة العربية، كما أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتهم ووثنيتهم، مثلما كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكل ويشرب ويتزوج مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون، وكان يركب الناقة والحصان مثلما كانوا يفعلون، فهل يعاب لأنه لم يخالفهم فى أسلوب حياته؟ لكن كيف ذلك؟ وفى القرآن نقرأ أن كتاب الله قد "نزل بلسان عربى مبين"، وهذا أمر طبيعى حتى يفهمه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم"، والسجع جزء من هذا اللسان الذى نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فأين وجه الحرج فى أن يستعين به كِتَاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلوب والعقول؟ وبقريب من هذا قال د. جواد على، الذى علّق على أسلوب المفسرين فى توجيه قَسَمِ القرآنِ بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلا: "وفي القرآن قَسَمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتون وبغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب، ففسروا وتأولوا. ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الإسلام، وأن القرآن إنما نزل بلسان العرب، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم، عرفوا السبب. ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القَسَم بهذه الأشياء، يُقْسِمون بها كما يُقْسِم المتحضر بأعز شيء عنده" (المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ 4/ الفصل الخاص بالنثر).

ونحن الآن مثلا قد تضطرنا الظروف فى بعض الأحيان إلى الصلاة فى مساجد تضم أضرحة لمن يُسَمَّوْن: "أولياء الله"، لكن المهم أننا لا نعتقد فى شىء

من هذا السخف المتخلف، والعبرة كما يقولون بالنية والغرض. كما أن المسلمين الأوائل قد أدَّوُا العُمْرَة فى السنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تزال تعجّ بالأوثان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسون طقوسا وثنية؟ بل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون من الطقوس ما كان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حج الخليل عليه السلام، لكن كما قلت: العبرة بالنية، إذ ينبغى ألا ننسى أن الجاهليين الوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحج الصحيحة التى ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، وهو ما احتفظ به الإسلام أيضا فى هذه العبادة. ومثله السجود، الذى كان بعض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمر، ويؤديه المسلمون أيضا، لكنْ لله تعالى لا لهذين الجِرْمَيْن السَّمَاوِيَّيْن... وهكذا. إن السجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداةَ لا تعاب فى حد ذاتها، بل للغرض السئ الذى تستعمل فيه، اللهم إلا إذا كانت مرتبطة ارتباطا لا ينفك بعقيدة منحرفة أو خلق كريه، وأنى ذلك فى السجع؟

وبالمثل كان سجع الكهان أيضا يدور فى فَلَك الوثنية ويتم فى بيوت الأوثان، بخلاف السجع فى القرآن، الذى حارب الوثنيةَ وقام الرسولُ الذى نزل عليه ذلك الكتاب الكريم بهدم أوثانها وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضَوْن أجرا على ما يقولون، أما النبى فلم يكن يمد يده إلى مال أحد، وآيات القرآن الكريم واضحة تمام الوضوح فى هذا: "قل: لا أسألكم عليه أجرا. إِنْ هو إلا ذِكْرَى للعالمين"، "وما أسألكم عليه من أجر. إِنْ أجرىَ إلا على رب العالمين"، "قل: ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا"، "قل: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القُرْبَى". ليس هذا فحسب، بل لقد حرّم الإسلام أيضا عليه وعلى أهل بيته جميعا أن يأخذوا شيئا أى شىء من أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتشدد فى هذا أيما تشدد! ولقد

حارب الإسلام والرسول الكهانة والمتكهنين حربا شعواء، وأبدى عليه السلام امتعاضه ونفوره الشديد من طريقتهم المتكلفة الغامضة فى التسجيع، فكيف يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد جرى فى رِكَابهم ونَهَجَ نَهْجَهم كما يردد بعض الرُّقَعَاء؟ ومصداقًا لهذا نلفت النظر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقف الرسول الأكرم من "سجع الكهان" أيضا لا من "الكهان" أنفسهم فقط، فقد "اقتتلت امرأتان من هُذَيْل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غُرّة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورَّثها ولدَها ومن معهم. فقال حمل بن النابغة الهُذَلِيّ: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شَرِبَ ولا أكلَ، ولا نَطَقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلك يُطَلّ. ففال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما هذا من إخوان الكهان"، من أجل سجعه الذي سجع"، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويشيعون الوهم فى العقول ويصطنعون أسلوبا متكلفا لا يبغى كشف الحق بل يمكّن للباطل تمكينا، فأراد عليه السلام من المسلمين أن ينبذوا هذا الأسلوب العفن الضار. إنهما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان فى استعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجرى على سُنّة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفسر المتنطعون الذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر فى مس شعرة من شعرهم؟ بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو كان واحدا منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عادَوْا أى واحد من أبناء مهنتهم؟ ليس ذلك فحسب، بل إننا لم نسمع أن أحدا منهم اتهم الرسول عليه السلام رغم هذا بأنه قد أخذ

منهم أسلوبه، فكيف نفسر هذا أيضا؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيًّا منها لا ينطبق على حالته صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعمَ كاذبةٍ متخبطةٍ مبعثها الحقد والغيظ. وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد انتهَوْا إلى الإيمان به لاحِسِين كل تلك الاتهامات ومكذّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون فى تطبيبه حتى يَشْفُوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفانى فى دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان. وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأنْ دخل الجميع فى دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضا لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يَسُوغ فى منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام فى العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من الكلام فى أقسام القرآن التى استُهِلَّتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هَوَى* ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى* وما ينطق عن الهوى* إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى"، "والسماء والطارق* وما أدراك ما الطارق؟* النَّجْم الثاقب* إنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عليها حافظ"، "ق والقرآنِ المجيد* بل عجبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "حم والكتاب المبين* إنا أنزلناه فى ليلة مباركة. إنا كنا منذِرين* فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم* أمرا من عندنا"... إلخ، قائلين إنه عليه السلام إنما يقلد الكهان فى طريقتهم بالقَسَم بمظاهر الطبيعة كالذى رُوِىَ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر،

وما اهتدى بعَلَمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر"، والذى رُوِىَ عن سواد بن قارب الدَّوْسِيّ وقوله: "والسماء والأرض، والغَمْر والبَرْض، والقَرْض والفَرْض، إنكم لأهل الهضاب الشُّمّ، والنخيل العُمّ، والصخور الصُّمّ، من أجَا العيطاء، وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء... أُقْسِم بالضياء والحَلك، والنجوم والفَلَك، والشروق والدَّلك، لقد خبأتَ بُرْثُن فرخ، في إعليط مَرْخ، تحت أسرة الشَّرْخ... والسحاب والتراب، والأصباب والأحداب، والنَّعَم الكثاب، لقد خبأتَ قُطَامة فَسِيط، وقُدّة مَرِيط، في مَدَرَةٍ من مَدِىّ مَطِيط... أُقْسِم بالسَّوَام العازب، والوقير الكارب، والمجد الراكب، والمُشِيح الحارب، لقد خبأتَ نُفَاثة قَنَن، في قطيع قد مَرَن، أو أديمٍ قد جَرَن... أُقْسِم بنَفْنَف اللَّوح، والماء المسفوح، والفضاء المندوح، لقد خبأت زَمَعَةَ طَلاً أعفر، في زِعْنِفَةِ أديمٍ أحمر، تحت حِلْسِ نِضْوٍ أدبر... والناظر من حيث لا يُرَى، والسامع قبل أن يناجَى، والعالم بما لا يُدْرَي، لقد عَنَّتْ لكم عُقَابٌ عجزاء، في شغانيبِ دَوْحَةٍ جرداء، تحمل جَدْلا، فتماريتم: إما يَدًا وإما رِجْلاً"، وكالذى رواه الجاحظ لعُزَّى سَلَمَة من أنه قال: "والأرض والسماء، والعُقَاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نَفَّرَ المجدُ بني العُشَراء، للمجد والسناء"، وكالذى جاء فى حديث زبراء الكاهنة مع بني رئام من قضاعة، إذ قالت: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الوادي لَيَأْدُو خَتْلاً، ويَخْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذِر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً"، وأخيرا كالذى نُسِبَ إلى سلمى الهمدانية وما أبدته من رأى في حريمٍ المُرَادِىّ: "والخَفْو والوميض، والشفق كالإحْريض، والقُلّة والحضيض، إن حريمًا لمَنِيع الحِيز، سيدٌ مَزِيز، ذو معقل حَرِيز، غير أني أرى الحُمَّة ستظفر منه بعَثْرة، بطيئة الجَبْرة". ويجد القارئ هذه النصوص تحت عنوان: "خُطَب الكُهَّان" و"خُطَب الكواهن" من كتاب "جمهرة خُطَب العرب" للمرحوم الأستاذ أحمد زكى صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تنبئنا أنها فى التنبؤ بالغيب أو فى التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحدوثة بين الناس، على حين أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحى القرآنى أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التى ينبغى أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد فى القيام به بحيث يضع فاعلُه مصلحةَ المجتمع والبشرية نُصْبَ عينيه وينتظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسَه الرغبةُ فى الاشتهار بين الناس كى يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلى الأخرق وصدَّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجرى هنا مع المتَّهمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أى أساس. كما أن الأقسام الخاصة بـ"التراب والأصباب والأحداب والنَّعَم والسحاب والغمام الماطر والمُزْن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والغَمْر والقَرْض والفَرْض والبَرْض واللوح الخافق ونَفْنَف اللّوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخَفْو والوميض والشفق الذى يشبه الإحريض والقُلّة والحضيض والحَلَك والفَلَك والدَّلَك والسَّوَام العازب والوقير الكارب والمجد الراكب والمُشِيح الحارب والناظر من حيث لا يُرَى والسامع قبل أن يناجَى والعالم بما لا يُدْرَى" هى أقسام لم ترد فى القرآن الكريم، وفى المقابل فإن القَسَم بـ"القرآن المجيد والقرآن ذى الذِّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور فى رَقٍّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور والصافّات صَفًّا والذاريات ذَرْوًا والمرسَلات عُرْفًا والنازعات غَرْقًا والليالى العشر والشَّفْع والوَتْر وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى والضُّحَى والتين والزيتون وطُور سِينِين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحًا" هو أيضا قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى

أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآنى التالى: "لا أُقْسِم بكذا"، ولا مجىء عبارة "هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْر؟" أو "وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم" أو "بل الأمر كذا وكذا" بعد القَسَم، أو مجىء حرف هجائى أو أكثر قبله، كما فى قوله تعالى: "والفجر* وليالٍ عشْر* والشَّفْع والوَتْر* والليل إذا يَسْرِ* هل فى ذلك قَسَمٌ لِذِى حِجْر؟"، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم* وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون* لا يَمَسُّه إلا المطَهَّرون"، "ص والقرآن ذى الذكر* بل الذي كفروا فى عِزّةٍ وشِقَاق"، "ق والقرآن المجيد* بل عجبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "يس والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسَلين* على صراط مستقيم". ثم إن النصوص المتضمِّنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهى النص الذى وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبإ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولا كبيرا لا تناسُب بينه وبين نصوص الكهانة المدّعاة. وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إما ممن صنعوها فى العصر العباسى ونسبوها زورا للجاهليين، وإما من كهان صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم واحْتَذَوْه، أو أن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلّدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوبا من أساليب القَسَم كان مستعملا فيما نزل من وحى على الأنبياء العرب السابقين كهُودٍ وصالح وشُعَيْب. والعجيب أن كاتب مادة "سَجْع" فى الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" ("دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين فى وَسْم كلّ ما نُسِبَ للكهان من أقوال بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول بأنه يقلد فى قرآنه

سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قد عمل فى ذات الوقت على أن يصبَّ فى هذا القالب الكهنوتى القديم المبادئ الجديدة التى أتى بها! أى كما يقال فى المثل: "عَنْزَة ولو طارت"!

وإنى لأستعجب أن يقرأ بعض الناس القرآن الكريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كلام الكهان، أو إنه تقليد لكلام الكهان! إن هذا الادعاء لهو دليل على أن صاحبه كاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصيرة. ولسوف أورد هنا نص ثلاث سور صغيرة هى "البلد" و"الليل" و"الضحى" وأترك القارئ (أيًّا كان دينه ومذهبه) وجهًا لوجهٍ أمامها ليسأل ضميره بصدق وأمانة: أمِثْل هذا الكلام هو من وحى الشياطين أو يجرى من جاء به على سُنّة الشياطين؟ يقول جل جلاله: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم* لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى

(19) إِلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)". والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحى الشيطان، فليس هناك شىء يستحق الثقة إذن فى دنيا الإنسان!

الخطابة عند الجاهليين

يتناول الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى مبيِّنًا أنهم كانوا بارعين فى هذا الميدان براعة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التى يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام فى مثل تلك المواقف ينثال عليهم انثيالا، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوّقهم فى ميدان الأحاديث العامة معروفا لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر، وإن كان من الباحثين المحدثين من يرى أنهم كانوا يُعِدّون خُطَبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبَّقًا، فهذه طبيعة الإبداع الأدبى كما يقولون (د. إحسان النص/ الخطابة العربية فى عصرها الذهبى/ دار المعارف/ 1963م/ 16- 17)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أنّ مِنْ خُطَبهم التى تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحلّيه السجع، مما يصعب تصور انثياله على لسان الخطيب ارتجالا، وهو من الأسباب التى دفعتنى للشك فى بعض الخُطَب الجاهلية المثقلة بالتسجيع والمحسنات البديعية كما سيأتى لاحقا.
كما كانت لهم تقاليد مشهورة فى إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لُبْس العمائم واتخاذ المِخْصَرة، أى العصا. وفى كتاب الجاحظ المذكور آنفًا نماذج من الخُطَب التى تركها لنا الجاهليون، ومعها

أسماء عدد ممن اشتهروا بالتفوق فى ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب فى ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تَضِع رغم أنهم كانوا أمّة أُمِّيّة فى غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجي زيدان أن العرب فى ذلك العصر كانوا خطباءَ مَصَاقِعَ بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوى نفوس حساسة أبيّة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة المتلهّبة مكانة عظيمة عالية، فضلا عن أنهم كثيرا ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم فى المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث فى تلك الظروف، وهم فى العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضا أنهم كانوا يدرِّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون خطبهم ويتوارثونها جيلا بعد جيل، ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ دار الهلال/ 1/ 167- 169). و"كان مفروضا فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه

على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ 1955م/21).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخى الأدب العربى قديما وحديثا، بيد أن للدكتور طه حسين رأيا مختلفا تماما عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطبًا ولا غير خُطَب: فالنثر من جهةٍ يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة فى جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شىء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلّفوه لنا من خطب وحِكَم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا فى أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه القهقرى مستثنيا من شكه هذا بعضا من النثر، وهو الأمثال، التى يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى النثر الفنى الذى يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط دينى عملى، بل كانت قائمة على التجارة، وهى لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطب (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ 1964م/ 329- 332). ولعله لهذا السبب نبحث عبثًا، فى كتاب "التوجيه الأدبى" الذى ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أى حديث يتعرض للخطابة فى العصر الجاهلى، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءًا من العصر الإسلامى فهابطًا إلى العصر الحديث متجاهلا تمام التجاهل أى كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التوجيه الأدبى/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة

والنشر/ 1359هـ- 1940م/41 وما بعدها، وكذلك 73 وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضا أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارنا للتاريخ الإنساني: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه"، وأنه "لهذا رُوِيَت لنا الخُطَب منذ عُرِف التاريخ"، وأنه متى توفر عاملا الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشا كبيرا (المرجع السابق/ 38- 40)، وهو ما تحقق للعرب فى ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها عليهم وينزلون لها عن حَظٍّ من حريتهم واستقلالهم، كما أن السخط على الأوضاع كان منتشرا بين كثير منهم آنذاك، هذا السخط الذى كان إحدى عُدَد الإسلام فى مواجهة الجاهلية وأوضاعها الباطلة التى جاء ليغيرها إلى ما هو أفضل. ثم إنه من غير المنطقى أن يخترع العرب فى عصور التدوين كل تلك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم من بينهم من يفضح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صارت كلها أمة من الكذابين أو من الكذابين والسذّج المغفلين الذين يجوز عليهم مثل هذا الخداع دون أن يثير فيهم إنكارا أو حتى دهشة واستغرابا!

على كل حال فطه حسين إنما يسير فى إنكاره للنثر الجاهلى على ذات الدرب المتخبِّط الأهوج الذى سار عليه فى نفيه للشعر الجاهلى كله تقريبا مشايعا المحترق مرجليوث فى خُرْقه وضلاله وعَمَى منطقه وبصيرته! وفوق ذلك فمن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحقٍّ عبد الله عبد الجبار ود. محمد عبد المنعم خفاجى، أن يرتقوا فجأة فى ميدان الخطابة هذا الارتقاء الذى يقرّ هو به بعد الإسلام لو كانوا لا يعرفون الخطابة فى الجاهلية أو كانت خطابتهم على الأقل من التفاهة وعدم الغَنَاء بالموضع الذى يزعم طه حسين (انظر

كتابهما: "قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى"/ مكتبة الكليات الأزهرية/ 1400هـ- 1980م/ 202- 203). كذلك قَفَشه د. محمد عبد العزيز الموافى قفشةً بارعةً بحقٍّ حين لفت الانتباه إلى أن طه حسين عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده فى ذلك الإنكار على خُلُوّ العصر الجاهلى من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلى على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز الموافى/ قراءة فى الأدب الجاهلى/ ط 7/ دار الثقافة العربية/ 1424هـ- 2003م/ 286- 287). أى أنه يقول بالشىء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعانة بالسفسطة السخيفة التى لا تُحِقّ حَقًّا ولا تُبْطِل باطلا! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصًا شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء فى ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوانئذ. ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبىّ:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ ** خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وقول أبى زبيد الطائى:

وخطيبٍ إذا تمَعَّرَتِ الأَوْ جُهُ يومًا فى مَأْقِطٍ مش

وقول أوس بن حجر:

أَمْ من يكون خطيب القوم إذ حَفَلوا ** لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وأفضالِ؟

وقول عامر بن فَضَالة:

وهم يَدْعَمون القول فى كل محفلٍ ** بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التى قَدِمَتْ على النبى فى المدينة عام تسعة للهجرة كان يضم بين أفراده خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبادلون الخطابة مع الرسول عليه السلام ومَنْ حوله من الصحابة، وهذا أيضا من الأدلة التى لا يمكن نقضها مهما سفسط الدكتور طه. وقد تعرض لذلك د. جواد على فى المجلد الرابع من كتابه: "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" (فى الفصل الخاص بـ"النثر"، تحت عنوان "الخطابة")، إذ قال: "والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء. ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء هي دليل أيضا على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كان من رأيه أن هناك خطبا جاهلية منحولة وأن نصوص الخطب الصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغيير بفعل الزمن وضعف الذاكرة

البشرية، وبخاصة أن الخُطَب ليست كالشعر، أى ليس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يَهْرِف به طه حسين هنا على النحو الذى كان معروفًا عنه عند عودته من أوربا متصورا أنه قد حاز العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم فى تاريخ العرب وأمجادهم بعُجَره وبُجَره دون أن يتريث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموتور منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتَّسِمون به من غيرةٍ ومسارعةٍ للنجدة وبلاغةٍ فى القول وذَلاَقةٍ فى اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق فى ميدان الخطابة، مبينا أن خطبهم كانت تتسم بالقِصَر والسجع حتى تَعْلَق بالذهن عُلُوقًا سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ط 24/ دار نهضة مصر/ 19). وبالمثل يقرر د. على الجندى بحقٍّ أنه قد"ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون فى مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرِّضون على القتال استثارةً للهمم وشَحْذًا للعزائم، وبها كانوا يحثّون على شن الغارات حُبًّا للغنيمة أو بَثًّا للحميّة رغبةً فى الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقنًا للدماء ومحافظةً على أواصر القربى أو المودة والصلة، ويحبّبون فى الخير والتصافى والتآخى، ويبغّضون فى الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جَلْبًا لمنفعة أو دَرْءًا لبلاء أو تهنئةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً فى مصيبة، فوق ما كانت الخطابة تؤديه فى المصاهرات، فتُلْقَى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين

بعضهم فى بعض" (د. على الجندى/ فى تاريخ الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ 264- 265). وعلى هذا الرأى أيضا نجد د. أحمد الحوفى، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعِدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطَبهم لُمَعًا بارقةً دون تفصيل أو تخطيط (أحمد محمد الحوفى/ فن الخطابة/ مكتبة نهضة مصر/ 150- 151). أما السباعى بيومى فيرى أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أيما حُفُول، "فيتخيرون لها من المعانى أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعًا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على العمل" (تاريخ الأدب العربى- ج 1 فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ 97). ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التى كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلا إن "الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب (أى نارها وشرها) وحِمَالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفى عقد الإملاك (أى الزواج) وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) ولكل ما أُرِيدَ ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب/ البرهان فى وجوه البيان/ تحقيق حفنى شرف/ مطبعة الرسالة/ 1969م/ 150).

أما د. شوقى ضيف فيسلك سبيلا مخالفة للفريقين جميعا، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء فى الجاهلية وتوفّر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التى تكفل لها الازدهار، إذ به يشك فى كل ما وصلنا تقريبا عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب فى هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلى

وعصر التدوين أيام العباسيين. ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذَوْها، وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والمفاخرات والمنافرات التى تُنْسَب إليهم مجوَّدة مسجوعة مثلا كان معنى هذا أنهم فى الجاهلية كانوا يجوّدون ويَسْجَعون فى خُطَبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 410- 419، والفن ومذاهبه فى النثر العربى/ ط 7/ دار المعارف/ 33- 38).

إلا أننا، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كَسَرهما لهذا الموضوع فى كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلِّم بما يقول على عِلاّته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت مخترعى الخطب الجاهلية فعلا نصوص صحيحة منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتفَوْا بما اخترعوه رغم تَيْح الأصل لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غَيْرِ مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعْد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربى تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرِف العربى بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التى ينتجها نثرا كانت أو شعرا، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساخ تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيرا من خطبهم فى الجاهلية كان مسجَّعًا مجنَّسًا مُرَاعًى فيه الموازنة وقِصَر الجمل، فضلا عن قِصَر

الخُطَب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبى لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بَلْهَ المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياسا على ما يَخْبُرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهى ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفتها الجاهلية من حِدّة ودِقّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أوانذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنثورة رغم تصورنا العكس اعتمادا على ظواهر الحال المضلِّلة. ولا ننس أيضا أن العقل الجاهلى لم يكن ينوء بما ننوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفا عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذى كان عليه الوضع فى العصر الجاهلى. وفوق هذا فإن الأُمِّيّة التى كانت تَسِم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعا إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطا لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضا، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخُطَب ونسبوها للجاهليين قد قاسُوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أى أن بُعْد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذى عزاه إليه وعلَّل به شكه فى صحة خطب الجاهلية التى بلغتنا. الواقع أن آخِر كلامه يَنْقُض أوّله بكل أسف! بَيْدَ أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شىء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تَخْرِم منه شيئا، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شىء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شىء فى عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس. ودعنا من النصوص التى زُيِّفَتْ تزييفًا واخْتُرِعَتْ اختراعًا مما سنتناوله بشىء من التفصيل فيما يلى حينما نقف عند طائفة من النصوص

الخطابية التى ليست قَمِينَةً فى نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التى يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التى يُفْتَرَض أن أصحابها يتنبأون فيها بمجىء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآنُ والحديثُ وينطق به العقلُ والمنطقُ. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه فى كتبهم. لكنهم لم يكونوا هُودًا ولا نصارى، فأنَّى لهم ذلك؟ وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذى فى القرآن أن عيسى قد بشَّر برسول يأتى من بعده اسمه "أحمد" (الصف/ 6)، على حين أن اسم النبى فى هذه الخُطَب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهى: لو أن ما جاء فى تلك الأحاديث صحيح تاريخيا، فكيف لم يحاجج النبى به قومه فيقول لهم مثلا: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبيا من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بى بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتى؟ لكننا ننظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم فلا نجد أثرا لمثل هذه الحجة التى كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيما تعضيد! كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَىّ جد النبى البعيد، ولو كان هذا صحيحا فكيف لم يذكِّر عليه السلام أهل بيته الذين كفروا به كعمه أبى لهب مثلا أو عمه أبى طالب بما قاله جدهم، ونحن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد كما تبدَّى فى ردّ الأخير فيما يروون عنه عند موته، إذ اعتذر عن الدخول فى دعوة محمد على أساس أنه لا يحب

المخالفة عن دين آبائه؟ وعلى هذا فإننا نقف مرتابين أشد الريبة إزاء الخطبة التالية التى ينسبونها لجد النبى ذاك، والتى يقول فيها: "اسمعوا وعُوا، وتعلّموا تَعْلَموا، و تفهَّموا تَفْهَموا. ليلٌ ساجٍ، ونهارٌ صاحٍ، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين، كل ذلك إلى بلاء. فَصِلُوا أرحامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلك رجع، أو ميِّتًا نُشِر؟ الدار أمامكم، والظن خلاف ما تقولون. زَيِّنُوا حَرَمكم وعظِّموه، وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم".

نهارٌ وليــلٌ واختلاف حوادثٍ ** سواءٌ علينا حُلْوها ومَريرُهـا

يؤوبان بالأحداث حتى
تأوّ
َبا **
وبالنّ
ِعَم الضافي علينا سُتُورُها

صُروفٌ وأنبـــاء تقلّب أهلها ** لها عُقَدٌ ما يستحيـل مَريــرُها

على غفــلة يأتي النبي محمـدٌ ** فيُخْبِر أخبارًا صَدُوقًا خبيرُها

***

يا ليتني شـاهد فَحْـواءَ دعوتـه ** حين العشيرةُ تبغي الحقّ
َ خذلانا"

وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحتوى على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منها أن العبارة التى

يتمنى فيها كعب أن يكون حَيًّا عند ظهور محمد تذكِّرنا بما قاله فى نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذى كان هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبى عليه السلام، فمن الطبيعى أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ ها هو ذا النبى الموعود واقف أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول ما رآه فى الغار عند ظهور جبريل له، فيجد من واجبه الإنسانى على الأقل أن يبصِّره بما ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعلية ويُظْهِر له تعضيده ويرفع من روحه المعنوية. أما كعب فكانت بينه وبين النبى الذى يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال. وفضلا عن ذلك فمِيسَم القرآن الكريم واضح وضوحا كبيرا فى خطبته أسلوبًا ومعنًى كما فى قوله: "والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين... فسيأتي له نبأٌ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم"، وهو ما يذكِّرنا بقوله تعالى: "ألم نجعل الأرض مهادا* والجبال أوتادا*...؟" (النبأ/ 7)، "قل: إن الأوّلين والآخِرين* لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" (الواقعة/ 49-50)، "قل: هو نبأ عظيم" (ص/ 67)، ""ولقد فتَنّا قبلهم قومَ فرعون وجاءهم رسولٌ كريم" (الدخان/ 17). ولو كان كعب قال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكل بساطة وشماتة فى وجهه صلى الله عليه وسلم قائلين له: ما بالك تأخذ كلام جدّك وتدَّعِى أنه من وحى السماء؟ ثم ما معنى نصحه إياهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه؟ هل سمع أحد أن قريشا فكرت يوما فى شىء من هذا القبيل، وهى التى لم يكن لها شرف فى العرب إلا شرف القيام على أمر البيت الحرام؟ وبالمناسبة لماذا لم يعرِّج كعبٌ على الأوثان التى كانت فى بيت الله فيزجر قومه عن عبادتها وتقديسها ما دام يتحدث بهذا السرور والإيمان عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ والطريف أن أحدا من سامعيه لم يخطر له

أن يستفسر منه عمن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبى من العرب أصلا. بل إنه لمن الواضح أن كعبا، حسب الخطبة التى طالعناها لتونا، لم يكن يدور فى باله أن محمدا هذا لن يكون أحدا آخر غير حفيد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

وعلى نفس الشاكلة تجرى الأحاديث التالية المنسوبة إلى خُنَافر بن التوأم الحِمْيَري وشافع بن كُلَيْب الصدفي وسَطِيح الذئبي وشِقّ أنمار وعُفَيْراء الكاهنة على التوالى:

1- حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَريّ مع رَئِيّه شَصَار: " كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أُوتِيَ بسطة في الجسم وسَعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدتْ وفود اليمن على النبي وظَهَر الإسلام أغار على إبلٍ لِمُرَاد فاكتسحها، وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمي، وكان سيدا منيعا، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصِبًا كثير الشجر من الأيك والعَرين. قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَحِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُدَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَدْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُحِرْتُ،

فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: اِلْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم امَّلسَ عنى، فبِتُّ مذعورا أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وأذنتُ أَعْبُدِي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجِمَالها ونُوقها. جَمْع: "حائل" و"سَقْب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام وعلَّمني سورا من القرآن فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة".

2- شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ يتكهن بظهور النبي: "قَدِمَ على تُبَّعٍ الآخِرِ ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقومٍ مُلْكًا يوازي مُلْكي؟ قال: لا إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ في الزَّبور، فُضِّلتْ أمته

في السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُؤَيّ، ثم أحد بني قُصَيّ. فنظر تُبَّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي".

3- سَطِيحٌ الذئبي يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر اللَّخْمِيّ: "رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْمِيّ ملكُ اليمن، وقد مَلَكَ بعد تُبَّع الآخَر، رؤيا هالتْه فلم يَدَعْ كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجِّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها، فأخبِروني بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقٍّ فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَدِم عليه سَطِيحٌ قبل شِقّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها فأخبرْني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلتْ منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئا يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحّرَّتين من حَنَش، لَيهبطنَّ أرضَكم الحَبَش، فلَيملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفَيَدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلي ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفَيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟

قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَلِىّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخِرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقّ، إن ما أنبأتك به لَحَقّ".

4- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقٌّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَينزلَنّ أرضَكم السودان، فَليغلبُنّ على كل طَفْلَة البَنَان، ولَيملكُنَ ما بين أُبَين إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بِدَنِىٍّ ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفَصْل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومٌ تُجْزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتُك به

لَحَقّ، ما فيه أَمْض. فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهّز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمِنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر".

5- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلة على سَطِيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلةُ وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أى عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سطيح. قال: جهِّزوه. فلما

قدم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمّ
ُ أم يسمع غِطْــريفُ اليمنْ ** يا فاضل الخطة أَعْيَتْ
مَنْ ومَنْ

أتاك شيــخ الحي من آل سَنَنْ ** أبيض فضفاض الرداء والبدنْ

رسـول قَيْل العجْـم يَهْـوى للوثن ** لا يرهب الرّ
َعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم ** فإن ذا الدهرَ أطوارًا دهاريرُ

منهم بنو الصرح بهرامٌ وإخــوته ** والهرمزان وسابورٌ وسابورُ

فـــــــربما أصبحوا يوما بمنزلة ** تهاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيرُ

حَثّوا المَطِيّ وجَدّوا في رحالهمو ** فما يقوم لهم سـرجٌ ولا كُورُ

والناس أولاد عَلاّتٍ، فمَنْ عَلِمُوا ** أنْ قد أقَلَّ فمحقورٌ ومهجورُ

والخير والشـر مقرونان في قَرَنٍ ** فالخير متَّبَعٌ، والشر محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح، فغمَّه ذلك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان رضي الله عنه".

6- عُفَيْراء الكاهنة تَعْبُر رؤيا مَرْثَد بن عبد كُلال: "رُوىَ أن مَرْثَد بن عبد كُلال قَفَلَ من غزاةٍ غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء واشتد سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالَتْه في حال منامه، فلما انتبه أُنْسِيَها حتى لم يذكر منها شيئا وتَبَتَ ارتياعُه في نفسه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن. ثم إنه حَشَرَ الكهان فجعل يخلو بكاهن كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأنْ لا عِلْم عندي، حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك، فتضاعف قلقه، وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك! إن الكواهن أَهْدَى إلى ما تسأل عنه لأن أتباع الكواهن

من الجانّ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان. فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علما مما أراد علمه. ولما يئس من طَلِبَته سلا عنها. ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد وانفرد عن أصحابه فرُفِعَتْ له أبيات من ذَرَا جبل (أى فى ظل جبل). وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت إليه منه عجوز فقالت له: انزل بالرَّحْب والسَّعَة، والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعَة (الممتلئة عن آخرها)، والعُلْبة المُتْرَعة. فنزل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أى النسائم) نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاما ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام، هل لك في الطعام؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لمّا رأى أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فداك البشر، فجَدُّك (حظّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم قَرَّبَتْ إليه ثَريدًا وقَدِيدًا وحَيْسًا، وقامت تذُبّ عنه حتى انتهى أكله، ثم سقته لبنا صَريفًا وضَريبًا، فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْنًا، وقَلْبَه هَوًى، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيْرَاء. فقال لها: يا عفيراء، من الذي دَعَوْتِه بالمَلِك الهمام؟ قالت: مَرْثَد العظيم الشان، حاشر الكواهن والكهّان، لمعضلةٍ بَعُدَ عنها الجان. فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أَصَبْتِ يا عفيراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جَرْسٍ صادع: هلموا إلى المشارع، فرَوِىَ جارع، وغَرِقَ كارع. فقال الملك:

أجل هذه رؤياي، فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَابِع، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع، والكارع عدوٌّ منازع. فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبي أم حَرْب؟ فقالت: أُقْسِم برافع السماء، ومُنْزِل الماء، من العَمَاء، إنه لَمُطِلّ الدماء، ومُنَطِّق العقائل نُطُق الإماء. فقال الملك: إلامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمَنْ أعضاده؟ قالت: أعضاده غطاريف يمانون، طائرهم به ميمون، يُغْزيهم فيغزون، ويدمِّث بهم الحُزُون، وإلى نصره يعتزُون. فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبتها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غيور، ولأمرى صبور، وناكحي مثبور، والكلف بي تُبُور. فنهض الملك وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقةٍ كوْماء".

ونبدأ بحديث خنافر، وفى هذا الحديث نلاحظ ما يلى: أن رَئِىّ خنافر قد تركه فى عمايته فلم يعلمه بأن نبيا جديدا ظهر بدعوته فى بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس فى تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافر. فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدرى خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته فيه رسولٌ من لدن النبى الكريم هو معاذ بن جبل رضى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافرًا إلا خبرا يعرفه القاصى والدانى؟ إن معنى هذا أن شيطان خنافر قد هجره هجرا غير جميل طَوَال ما يقرب من عشرين سنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمن فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئِىٍّ من الجن؟ أم تراه توقف

عن ممارستها كل تلك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصةٍ أن خنافرا لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدَى عليها وعملها على الثأر منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة فى القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شَصَار لن يساعد خُنَافِرًا فى كهانته، مع أننا نعرف جيدا أن الإسلام يكفِّر الكهان ويحاربهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعدا سيكون لقاء مجرَّما ومحرَّما أشد التجريم والتحريم، وهذا إن قَبِلَ الجنى أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التى يدعو إليها خنافرا! فكما ترى هذه ثُغْرَة أخرى فى القصة يصعب بل يستحيل سَدّها. ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هذا الذى كان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لماذا لم يعرف شصار بدوره بنبإ الإسلام إلا من إخوان له من الجن كانوا قد آمنوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سماع القرآن الذى كانوا يتلونه؟ ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس؟ فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه من يريد سماعه؟ فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور؟ إن سورة "الجن" والآيات 29- 32 من سورة "الأحقاف" تحدثاننا عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليه السلام دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هذه على خلاف ذلك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن؟ أترى القصة تريد أن تقول إن "الشيخ البعيد سره باتع"؟ أم تريد أن تجرى على سُنّة

المثل القائل: "من أين أذنك يا جحا؟"؟ كذلك ألم ينصح شَصَارُ لخنافر بأن يأتى النبىَّ فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشوِّق لرؤية النبى الكريم؟ يا له من كاهن كسول! بل لماذا أراد صنعاءَ من الأصل، ولم يأت لها ذكر فى الحوار بينه وبين رَئِيّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر لِيغيب عن كُتُب الحديث؟ كذلك لو كان ما قرأناه هنا صحيحا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمنى سلاحا بتارا فى الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صحيح أنه إنما أسلم، كما رأينا، بأَخَرة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن يكون ذا نفع جزيل فى معركة الدعاية بحيث يسهِّل إنجاز المهمة الباقية، وهى القضاء على فلول الوثنية فى بلاد العرب، تلك الوثنية التى لم تكن قد خمدت تماما حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل رِدَّةٍ مستطيرة. ثم مصطلح "السجع المتكلَّف"، هذا المصطلح البلاغى الذى لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العصر العباسى، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته؟ بل إن فى الخطبة سجعا متكلَّفا لا قِبَل للجاهليين به كما هو واضح فى المثال التالى: "خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أَوَار النار"، علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة فى هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: "قال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ" والتى يصعب علىّ أن أتصورها من شِيَم الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفىٌّ لا نعرف نحن البشر عنه شيئا سوى ما جاء فى

الوحى كما هو الحال فيما أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن أهضم شيئا منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربى، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْع والجِنَاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضا؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم فى سُورَتَيِ "الأحقاف" و"الجن" قد استخدموا كذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التى لا ندرى نحن البشر عنها شيئا.

على أن القضية لمّا تنته عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله: " كان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى هُوِىَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أَجَل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُدَّام (يقصد أنه قابل قبيلة من الجن) حُكّامًا على الحُكّام، يَدْبُرون ذا رونقٍ من الكلام ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُحِرْتُ، فعاودتُ فطُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من

أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأوضحَ نهجًا قد دَثَر، فيه مواعظُ لمن اعتبر، ومعادٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين (أى الحجارة السُّود)، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين".
ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضح من مفتتح حديثه، كان يعرف بمجيء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئا من ذلك بالمرة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟ ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد على عن سجع الكهان فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، فوجدته يقول عن هذه القصة إنها "خبر يرجع سنده إلى ابن الكلبي، وقد ذكر في "الأخبار المنثورة" لابن دُرَيْد: وقد ذكر أنه (أى خُنَافِرًا) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظه ابن الكلبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَدّ من المستحيلات". أى أن فى العلماء العرب من كانوا لا يطمئنون مثلى إلى هذه القصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال فى حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبى، وإن لم يحضر واقعة إسلام خنافر والحوار الذى دار بينه وبين شَصَار قبلها، قد سمعها مع هذا ممن سمعها بدوره من فم ذلك

الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوقُ بالأدلة التى اعتمدت أنا عليها بدلا من الالتجاء إلى التشكيك فى ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافع الصَّدَفِىّ فغريبٌ أن يقول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غسّان أعظم من مُلْك التبابعة على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، على حين أن التبابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن لدُوَيْلَة غسان منها شىء! ثم غريب أيضا أن تترك القصةُ التوراةَ والإنجيلَ وتذهب إلى الزَّبُور لتقول إنه قد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنه لم يأت فى القرآن ولا فى الحديث أن بشارةً مثل هذه موجودةٌ فى الزبور! وبالنسبة لسَطِيح ونبوءته لربيعة اللَّخْمِىّ هل يجوز فى العقول أن يجرؤ كاهن كسطيح على أن يَجْبَه الملك ويُدْخِل الغمّ عليه بقول الحقيقة له كاملة ودون تَوْشِيَة، مع أنه كان فى مندوحة عن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لِتقع قبل بِضْعَةٍ وسبعين عاما يكون هو نفسه خلالها أو الملك قد مات، وكان الله يحب المحسنين؟ وحتى لو لم يمت أىٌّ منهما، ترى هل كان المَلِكُ المولِّيَةُ شمسُه يستطيع أن يؤذيه حينها بشىء؟ وهذا إن جاز لنا أن نصدق أن سَطِيحًا يمكن أن يعرف شيئا من أمور الغيب المحجوب عن البشر والجن والملائكة والحيوان جميعا؟ ثم أليس غريبا ألا يجد كسرى من بين كهّانه فى مملكته الطويلة العريضة من يستطيع أن يَعْبُر له رؤياه حتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب؟ كما أن من غير المعقول أن يجرؤ كاهن على أن يَجْبَه رسولَ كسرى بهذا التفسير المزعج للرؤيا، ثم يَجْبَه هذا به عاهلَه دون محاولة من جانبه لتلطيف وقع الأمر، ودَعْنا الآن من التحوير فى

تعبير الرؤيا كما قلنا من قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التي قام سطيح هو أيضا بتفسيرها! ومن الغريب فى الأمر أن أيًّا من كبار رجال فارس، حين بدأ الفتح الإسلامى لبلادهم، لم يتذكر رؤيا عاهلهم هذه، مع أنها ليست من الأشياء التى يمكن أن تُنْسَى بسهولة نظرا لخطورة موضوعها والظروف التى رُئِيَتْ وفُسِّرَتْ فيها كما لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هذه الرؤيا وتفسيرها إذا كانت قد امَّحَتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغى أن يفوت انتباهَنا ما جاء فى تعبير شِقّ أنمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يوم الفصل" (الذى ورد فى سورة "المرسلات")، وقوله أيضا: "وربِّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ؟" (المأخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يوم الميقات" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "ميقات يوم معلوم" الموجودة فى سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعْقَل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبة الملك لها؟ إن ما قالته فى تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعا بحال! ثم متى ذبح النبى قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟ فأين ذهب الصِّدّيق إذن والفاروق وذو النورين وأبو الحسنين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشى وصُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو دُجَانة والنابعة الجعدى وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكَرِب وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من أهل بيته ومن غير أهل بيته، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعا؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِىّ وانطفاء النيران فى معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة

وما إلى ذلك فنُعَدِّى عنها لأنها لا حقيقة لها فى واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لها كتب المسلمين الأوائل بشىء، وهو ما يذكِّرنا بأسطورة انشقاق الهيكل عند وقوع الصَّلْب طبقًا لرواية مؤلِّفى (أو بالأحرى: ملفِّقى) الأناجيل! ثم لا ينبغى أن نتجاهل الوتيرة الواحدة التى تجرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها على السؤال من جانب تبع، والجواب من جانب الكاهن أو الكاهنة بلا أى تغييرٍ، حَذْوَك النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحث فى خُطَب الجاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صدرت عنهم، كما فى الشاهد التالى، وهو من خُطْبة عامر بن الظَّرِب العَدْواني حين خُطِبَت ابنته عَمْرة، إذ جاء فيها قوله لقومه: "فهل لكم في العِلْم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلتَ فأصبتَ، وأخبرتَ فصدَقْتَ. فقال: أمورا شتى وشيئا شَيّا، حتى يرجع الميت حيّا، ويعود لاشيء شَيّا"، إذ من المستبعد تماما أن يعرف الجاهليون مصطلح الـ"لاشىء" هذا، فهو لفظ منحوت لا أظنه أبدًا قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبل العصر العباسى! بيد أن هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون النص كله مشكوكا فيه، فإنى لا أجد فى نفسى شيئا ذا بال من أن تكون هذه الخطبة، فيما عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجل الجاهلى، إما كما هى أمامنا الآن أو بعد أن تكون الذاكرة أو الأقلام قد مسَّتْها بعضَ المسّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة أنْ قد رواها لنا أمثال الميدانى والجاحظ وابن عبد ربه حسبما ذكر أحمد زكى صفوت فى ذيلها، فضلا عن أن السجع فيها ليس متكلَّفًا ولا مطَّرِدًا كما فى بعض الخُطَب الأخرى.

كما أن فى بعض تلك الخُطَب ترفا ثقافيا وأدبيا لا يقدر عليه الجاهليون، ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخذ مثلا النص التالى: "كان قيس بن رفاعة يفد سنةً إلى النعمان اللَّخْمِيّ بالعراق، وسنةً إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسّاني بالشأم، فقال له يوما وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضّل النعمان علىّ. قال: وكيف أفضّله عليك أَبَيْتَ اللعن؟ فوالله لَقَفَاك أحسن من وجهه، ولأُمّك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولَشِمالك أجود من يمينه، ولَحِرْمانك أنفع من نَدَاه، ولَقليلك أكثر من كثيره، ولَثِمَادك (أى قليل مائك) أغزر من غديره، ولَكُرْسِيّك أرفع من سريره، ولَجَدْولك أغمر من بحوره، ولَيَوْمك أفضل من شهوره، ولَشَهْرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه (الحُقْب: القرن)، ولَزَنْدك أَوْرَى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولَجُنْدك أعزّ من جنده، وإنك لَمِنْ غسّانَ أربابِ الملوك، وإنه لمن لَخْمٍ الكثير النُّوك (الكثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك؟"، فمما لا يطمئن له القلب فى قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِرٍ العبارةُ التالية: "ولَيومك أفضل من شهوره، ولَشهرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه"، إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا يحسنه الجاهليون من تنوُّقٍ وترفُّهٍ فكرى وأسلوبى يتمثل فى التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب فى تسلسل جذاب تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها فى شكلٍ فنّىٍّ لا نظير له لدى الجاهليين. أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئا يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه فى كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من ذلك خطبًا وأحاديثَ تخلو تماما

من مثل ذلك التكلف أو تكتفى من تزاويق البديع بالقليل الذى يسبغ على الكلام شيئا من الرونق دون إسراف كما فى المثال التالى من الحوار الذى دار بين قيسِ بن خُفَافٍ البُرْجُمِىّ وحاتمٍ الطائى: "أتى أبو جبيل قيسُ بن خُفَاف البُرْجُمِىّ وحاتمٌ طيئ في دماءٍ حَمَلها عن قومه فأسلموه فيها وعجز عنها، فقال: والله لآتِيَنَّ من يحملها عني. وكان شريفا شاعرا، فلما قدم عليه قال: إنه وقعت بين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدَّمتُ مالي، وكنتَ أملي. فإن تَحْمِلْها فرُبَّ حقٍّ قد قَضَيْتَه، وهَمٍّ قد كفَيْتَه، وإن حال دون ذلك حائل لم أَذْمُمْ يومك، ولم أيأس من غدك. ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجم جَمَّةً ** فجئتك لما أسلمتني البراجمُ

وقالوا سفاها: لِمْ حملتَ دماءنا؟ ** فقلت لهم: يكفي الحِمـَالةَ حاتمُ

متى آتِهِ فيها يقـل لِيَ: مرحبًا ** وأهلا وسهلا، أخطأتك الأشائمُ

فيحملها عنى، وإن شئتُ زادني ** زيادةَ من حَنَّتْ إليـــه المكارمُ

يعيش الندى ما عاش حاتُم طيِّءٍ ** فإن مات قامت للسخاء مآتمُ

ينادين: مات الجود مَعْكَ فلا نرى ** مجيبًا له ما حام في الجوّ حائمُ

وقال رجـال: أنهب العــامَ مـالَه ** فقلــت لهم: إني بذلك عـــالمُ

ولكنه يعطـي مِنَ امــوَال طـَيِّءٍ ** إذا جلَّف المالَ الحقوقُ اللوازمُ

فيعطــي التي فيــها الغنى، وكأنه ** لتصغيره تلك العطيةَ جـــــارمُ

بذلك أوصـــــاه عـــديٌّ وحَشْرَجٌ ** وسعدٌ وعبدُ الله، تلك القمــاقمُ

فقال له حاتم: إنْ كنتُ لأُحِبّ أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مِرْباعي من الغارة على بني تميم، فخذه وافرا، فإن وفَّى بالحِمَالة، وإلا أكملتُها لك. وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفِصَالها، مع أني لا أحب أن تُوبِسَ قومك بأموالهم. فضحك أبو جبيل وقال: لكم ما أخذتم منا، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعتَه إليَّ ليس ذَنَبُه في يد صاحبه فأنت منه برىء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعا إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتــاني البُرْجــُمِيُّ أبــو جُبَيْلٍ ** لهمٍّ في حِمَالتـــه طويـــــــــل

فقلت له: خذ المِرْباع رَهْوًا ** فإني لست أرضى بالقليــل

على حالٍ ولا عوَّدْتُ نفسي ** على عِلّاتها عِلَــلَ البخيـــل

فخذهـــا، إنها مائتا بعـــــيرٍ ** ســـوى النـــابِ الرذيّـَة والفَصِيـل

فلا مَنٌّ عليـــــك بــها، فإني ** رأيتُ المَنَّ يُزْري بالجزيـــــــل

فآب البرجميّ، ومـــا عليـــه ** مِنَ اعْبـــاء الحِمَالة من فتيل

يجرّ الذيـــل يَنْفُض مِدْرَوَيْهِ ** خفيف الظهر من حملٍ ثقيــل"

ومثله فى ذلك النص التالى، وهو من حوار دار بين قُبَيْصَة بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملك المشهور فى مقتل والد الأخير: "قدم على امرىء القيس بن حجر الكندي بعد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بني أسد، وفيهم قُبَيْصَة بن نعيمٍ، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبَاءٍ وخُفٍّ وعمامةٍ سوداءَ، وكانت العرب لا تعتمّ إلا في التِّرَات (أى فى أوقات الثأر). فلما نظروا إليه قاموا له وبَدَرَ إليه قبيصة فقال: إنك في المحلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تُحْدِثه أيامه وتتنقّل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكيرٍ من واعظٍ ولا تبصيرٍ من مجرّب، ولك من سُؤْدَد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه من إقالة العَثْرة ورجوعٍ عن الهفوة، ولا تتجاوز الهممُ إلى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يَطُول رغباتِها ويستغرق طِلِباتها. وقد كان الذي كان من الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيّته نِزَارًا واليمن، ولم تُخْصَص بذلك كِنْدَة دوننا، للشرف البارع كان لحُجْر: التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب الشِّيَم. ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خِلالٍ ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقُدْناه إليك بِنِسْعَةٍ تذهب مع شفرات حُسَامك بباقي قَصَرته، فنقول: رجلٌ امتُحِن بهالكٍ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمتَه إلا تمكينه من الانتقام، أو فداءٌ بما يروح على بني أسد من نَعَمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحَن على البُرَآء، وإما أن وادعْتَنا إلى أن تضع الحوامل فتُسْدَل الأُزُر، وتُعْقَد الخُمُر

فوق الرايات. فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد عَلِمَتِ العرب أنه لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دمٍ وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتسب به سُبَّة الأبد، وفَتَّ العَضُد، وأما النَّظِرة فقد أوجبتْها الأجنّةُ في بطون أمهاتها، ولن أكون لعَطَبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقًا، وفوق الأسنّة عَلَقًا

إذا جالت الحرب في مأزقٍ ** تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذيّة، وحربٍ وبليّة. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يتمثل:

لعلّكَ أن تَسْتَوْخِم الورْدَ إن عَدَتْ ** كتائبُنا في مأزق الحرب تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرُوَيْدًا ينفرجْ لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حِمْيَر. ولقد كان ذِكْر غير هذا بي أَوْلى إذ كنتَ نازلا برَبْعِي، ولكنك قلتَ فأوجبتَ. فقال قبيصة: ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التى قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام فى حضرة سيف بن ذى يَزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنئونه على انتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من بلاده: "لما ظفر سيف بن ذي يَزَن بالحبشة أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاًّ رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أُرُومَتُه، وعزَّتْ جرثومتُه، وثَبتَ أصله، وبَسَقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب

موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأْسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن يَهْلِك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمّته وسدنة بيته. أَشْخَصَنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزَئة".

ومثلها فى ذلك خطبة أبى طالب عم النبى عندما ذهب معه لخِطْبة خديجة بنت خُوَيْلِد له، وهذا نصها: "خَطَبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكّام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخي من لا يُوَازَن به فتًى من قريش إلا رَجَحَ عليه بِرًّا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونُبْلاً. وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مسترجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصَّدَاق فعَلَىَّ".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلى تثير نوعا آخر من التساؤلات، وهى الخطب التى يقال إن بعضا من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقَوْها فى قصر العاهل الكِسْرَوِىّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدال بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يجرؤ أولئك العرب، الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين دولة تحميهم من بطش كسرى إذا فكر فى البطش بهم، على أن يتفاخروا فى وجهه ذلك الفخر المجلجل الذى يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفودا من الصين والهند

والروم كانت موجودة فى ذلك الاجتماع تتبادل التفاخر والتباهى بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك فى تلك الأزمان ما يمكن ببساطة، ودون افتئات على حقائق الحوادث لو صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: "حوار القوميات" أو "حوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولا شيئا من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية:

" قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارسَ ولا غيرها. فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة من يَقْدَم علىَّ من وفود الأمم فوجدتُ للروم حظا فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دِينًا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدَبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها

ولذّاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعِمُهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفا (أى أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنُوخِيّة التي أسس جَدِّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن لها مع ذلك آثارا ولُبُوسًا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس، يعنى اليمن، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمّةٍ المَلِكُ منها أن يَسْمُوَ فضلها ويَعْظُم خَطْبها وتعلو درجتها، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإن أَمَّننى من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمّتك أيها الملك فليست تُنَازَع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها وبُحْبُوحة عِزّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرتَ فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فَضَلْتها. قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومَنَعَتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها من الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حُسْن وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين

المُنْحَفَة والروم والترك المشوَّهة المقشَّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةٌ من الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا من أوّلها حتى إن أحدهم لَيُسْأل عمن وراء أبيه دِنْيًا (أى بعده مباشرة) فلا يَنْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبًا فأبًا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدْعَى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُلاً الذي تكون عنده البَكْرة والناب عليها بلاغُهُ في حُمُوله وشِبَعه وريّه فيَطْرُقه الطارق الذي يكتفي بالفَلْذة ويجتزى بالشّربة فيَعْقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكْسِبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم التي لا يُبْلغ على مثلها سَفَر، ولا يُقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر. وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهم أشهُرًا حُرُمًا وبلدا محرَّما وبيتا محجوجا يَنْسِكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيَلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذًى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي وَلْثٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه فلا يَغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته أو تَفْنَى

قبيلته لما أُخْفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: "يَئِدُون أولادهم" فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالجَ ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه. وأما تحارُبهم وأَكْل بعضهم بعضا وتَرْكهم الانقياد لرجل يَسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفا وتخوَّفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَزمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أى الوطء) بالعَسْف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجبش له على مُلْكٍ متسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوبا طريدا مُسْتَصْرخًا. ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطِّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرَارَة التميميَّيْن وإلى

الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريَّيْن وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريَّيْن وإلى عمرو بن الشريد السُّلَمِيّ وعمرو بن مَعْدِيكرب الزُّبَيْدي والحارث بن ظالم المُرِّيّ. فلما قدموا عليه في الخَوْرَنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلاً (أى خُدّامًا) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) في تأديتهم الخَرَاج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقك الله! ما أحسن ما رددت، وأبلغ ما حَجَجْتَه به، فمُرْنا بأمرك وادْعُنا إلى ما شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إلىَّ مما سدَّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل، وليكن أمرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتُكم بها- فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلَّط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كلّ رجل منهم حُلّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمه بياقوتةٍ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبةٍ مَهْرِيّة وفرسٍ نَجِيَّةٍ، وكتب معهم كتابا: أما بعد،

فإن المَلِك ألقى إلىَّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوَّتها تبلغها في شىء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطًا من العرب لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، ولْيُكْرِمْني بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم. وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم. فخرج القوم في أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيامٍ أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسيَّ عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وطىء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أَمِيرَ بها. شر الملوك من خافه البرىء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحلّ. حَسْبُك من

شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف. فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه. قال أكثم: الصدق ينبىء عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قولٍ أنفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمي فقال: وَرِىَ زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك. إن العرب أمة قد عَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها، وهي لك وامقة ما تألَّفْتَها، مسترسلة ما لاَيْنَتَها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذم دونها. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأسْد بصَوْلتها. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل الأقاويل يعرِّف اللُّبّ، وهذا مقامٌ سيُوجِف بما ينطق به الرَّكْب وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيْرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير عُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرّة؟ قال

كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّرًا بنفسه على الموت فهى منيَّةٌ استقبلها، وجِنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا، وأحبسها وهى تَصَرَّف بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحى، وبرقها سيفى، ورعدها زئيرى، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس فى غمرات لُجَجها، وأكون قُلْقًا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دما، وأترك حُمَاتها جَزَر السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فَعَاله أَنْطَقُ من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أَحْشَد، ولا شهودا أَوْقَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَمِىّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتَبَرة، وفى كثيرٍ ثِقْلة، وفى قليلٍ بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العِزّ، وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدِك (أى عطائك). إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إن أَوْرَيْنا نارا أَثْقبْنا، وإن أودَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك. قال عمرو: كفى بقليل قصدى هاديًا، وبأيسر إفراطى مُخْبِرًا. ولم يُلَمْ مَنْ عَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورَضِىَ من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِىُّ المنطق أشدّ من عِىّ السكوت، وعِثَار القول أنكأ من عثار الوَعْث، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ويعلم مَنْ سمعنى أننى له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفى ما أتخوَّف ويُتَخَوَّف منى. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامري فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن عَزَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له فى آبائه دِنْيًا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمى حماه، ويُرْوى نداماه، ويذود أعداه، لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يَبْلُ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنعْ العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواخر طَمْيًا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم يُعِزّوك، وإن تستصرخْهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخَشِيَ أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المَرَاشِد، وجنَّبك المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا فى قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحْجِمين، وفى الناس غير مقصِّرين. إن جُورِينا فغير مسبوقين، وإن سُومِينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ فى ذلك إلا كوَافٍ عُدِرَ به، أو كخافر أُخْفِرَ بذمّته. قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتي أحقّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخائنة (أى الخَوَنة)، واستنجد الأثَمَة ناله من الخطإ ما نالنى، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة لِمَ يُحْكِم قُوَاه فيُبْرِم، ويَعْهَد فيُوفِى، ويَعِد فيُنْجِز؟ قال: وما أحقَّه بذلك! وما رأيتُه إلا لى. قال كسرى: القوم بُزُلٌ (البازِل: الناقة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُرَ فنون المنطق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنما الفخر فى الفَعال، والعَجْز في النجدة، والسؤدد مطاوَعَة القدرة. وما أعْلَمَك بقدْرنا، وأبْصَرَك بفضلنا. وبالحَرَى إن أدالت الأيام، وثابَت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أمورا لها أعلام. قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يُذْكر. قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكر؟ قال: ما لي علمٌ بأكثر مما أخبرنى به مُخْبِر. قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل؟ قال: لستُ

بكاهن، ولكنى بالرمح طاعن. قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، ما أنت صانع؟ قال: ما هَيْبَتى فى قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أَذْهَبَ عيني عَيْثٌ، ولكن مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْدِيكرب الزُّبَيْدِيّ فقال: إنما المرء بأصغرَيْه: قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الصواب، ومِلاك النُّجْعة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجْتَبِذْ (اجتذبْ) طاعتنا بلفظك، واكتظم بادِرَتنا بحِلْمك، وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلس لك قِيَادنا، فإنا أناسٌ لم يُوَقِّسْ صَفَاتَنا (أى لم يخدش صخرتنا) قِرَاعُ مناقير مَنْ أراد لنا قَضْمًا، ولكنْ مَنَعْنا حِمَانا مِنْ كلّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّيّ فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأي خفة الملك المسلَّط، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا بخَلِيق، ولا للاعتماد عليه بحَقِيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وَلْث العقود. والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبَلك ميل أو زلل. قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء آبائك لَدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبِه أفعالُك مجلسَك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم قال كسرى: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدَكم ولم يُحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما

استولى على ألسنتكم وغَلَبَ على طباعكم لم أُحِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أَجْبَه وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحِبّ من إصلاح مُدَبَّركم وتألُّف شوادّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَلِككم، فأَحْسِنوا موازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شىء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذى لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة فى شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد فى كلامه مصطلحا "الوزن والقافية" الشِّعْريّ، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما فى ذلك المعنى آنذاك؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفى ليست فى الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التى تُنْسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسَّفًا، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة فى حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هى الخطبة التى انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها فى حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتًا. كما وردت فى الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهى عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التى استعملها النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُسْتَعْمَل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية:

"شريعة"؟ لقد بحثت فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية عن شواهد فى الشعر الجاهلى لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتا واحدا لا علاقة له البتة بهذا المعنى. ثم هل تُوَاتِى نَفْسَ أى عربى فى محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ"الأعاجم" مثلما فعل الحارث بن عباد البكرى، وهى كلمة مسيئة فى حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء فى القصة من أن عمرو بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافى الذى يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرفْدك. إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدا"؟ أو أن يقرّع الحارث بن ظالم المرِّىّ كسرى بهذه الكلمات التى تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: "إن في الحق مَغْضَبة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ اِلحْلم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالُك مجلسَك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان انتقاض العرب عليه وحربهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئا؟ وإنْ خفّفَ من ذلك تنبيهُ النعمانِ للعاهل الفارسى منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى فى النهاية بأنه إنما يصفح عما فى كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب فى قصتنا هذه قد صُبَّتْ فى لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون فى مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفى نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخى وأنها قد وصلت المدوّنين فى العصر العباسى فى خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد،

فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصّون به العرب فى العصر العباسى ويقلّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة فى بدايتها إلى وجود الترجمان فى تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا فى هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصا أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف فى هندسة العبارة والاستقصاء فى المعنى والتشقيق فى التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نثق فى جاهليتها، كوصف عصام الكِنْدِيّة لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني فى النص التالى: "لما بلغ الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها أراد أن يتزوجها، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي عِلْمَ ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنت الحارث فأعلمتها ما قَدِمَتْ له، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت: أَيْ بُنَيّة، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئا أرادت النظر إليه من وجهٍ وخلق، وناطِقيها فيما استنطَقَتْكِ فيه. فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُها مثله قَطُّ بهجة وحسنا وجمالا، فإذا هي أكمل الناس عقلا وأفصحهم لسانا، فخرجت من عندها وهي تقول: تَرَكَ الخداعَ مَنْ كشَفَ القناع، فذهبت مثلا. ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلا. قالت: صَرَّحَ المَخْضُ عن الزبد، فذهبت

مثلا. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرك صدقًا وحَقًّا. رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعرٌ حالكٌ كأذناب الخيل المضفورة. إن أَرْسَلْته خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطْته قلتَ: عناقيدُ كرْمٍ جلاها الوابلُ، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّسا على عيني الظبية العَبْهَرَة (البيضاء الرقيقة البَضّة)، التي لم يَرُعْها قانص ولم يَذْعَرها قَسْوَرَة (أى الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يخَنْسَ به قِصَرٌ ولم يمض به طول، حَفَّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، في بياضٍ مَحْضٍ كالحُمَان، شُقَّ فيه فم، كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا عُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يجلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسّ، ولا عِرْقٌ يُجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، ليّنٌ عَصَبُهما، تَعْقِد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص في حُفَر المفاصل، وقد تربَّع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوىَ كطَيّ القَبَاطِي (أى الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكَتّان) المُدْمَجَة، كُسِىَ عُكَنًا (العُكَن: ثنيّات البطن) كالقراطيس المُدْرَجَة، تحيط تلك العُكنُ بسُرَّة كمُدْهُن العاج المجلوّ، خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهضها إذا قعدتْ، كأنه دِعْصُ رملٍ، لبَّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفَّاوان، كأنهما نَضِيد الجُمَان، تحتهما ساقان خَدْلتان، كالبَرْدِىّ وُشِّيَتَا بشعرٍ أسود، كأنه حلَق الزَّرَد، يحمل ذلك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما

فوقهما؟ فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنَظْمٍ أو نَثْر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها".

إن هذا لبكتابة تقرير فنى فى مسابقات العهر (التى يسمونها زورا بـ"مسابقات ملكات الجمال") يضع نُصْبَ عينيه تقديم وصف تفصيلى لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة فى تلك المسابقات أشبهُ منه بحديثِ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب فى تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتَسُرّه! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيّة فى وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر". فهل تراها تركتْ شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التى يبغى خِطْبَتها؟ ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها"، أى أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصَّل الذى لا يدل إلا على شىء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئا؟ وإلى جانب هذا لا ينبغى أن ننسى أن تعبيرات مثل "خُلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر"، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالبا إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التى يُوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: "تحته كفَلٌ يُقْعِدها إذا

نهضتْ، ويُنْهضها إذا قعدتْ"، فضلا عما فيها من ترفٍ فى تذوق الجمال النسائى لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعىّ المعقَّد الذى لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية ورَدٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معا. وهناك أيضا المقابلة بين "النظم والنثر" فى الجملة التالية التى وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْمٍ أو نَثْر" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه فى تعبيراتهم، بل إننى لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحى الذى عُرِفَتَا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها فى مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أُمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها فى ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجنَّسة المتوازنة (رغم ما فى السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما فى النص التالى الذى تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التي مر بنا قبل قليل وصف عصام الكندية العجيب لها؟: "أيْ بُنَيَّة، إن الوصية لو تُركتْ لفَضْل أدبٍ تُركتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لِغَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال. أيْ بُنَيَّة، إنك فارقتِ الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخلَّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَلِيكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكا. يا بُنَيَّة، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا

تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير، ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْعَرْتِ صدره. ثم اتَّقِى من ذلك الفرحَ إن كان تَرحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرحًا، فإن الخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له مواقَفَة، يكن أطول ما تكونين له مراقَفَة. واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرِهتِ، والله يَخِير لكِ". لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج فى حديثها الشفوى المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التى تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد فى كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضا، على مدار الدهر، لكن هذا شىء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضًا: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرِدْ ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء مَلِكٍ وزوجته وحماته لا ناس من عُرْض الطريق؟ على كل حال فإنى معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم وأجده يرن فى سمعى رنين الذهب، ويهَشّ قلبى إليه هَشَاشَ الأرض العطشى لوابل الغيث المُحِيى!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطبِ الجاهليين سَبَبُه افتقادى لذلك فى نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلا عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يُفْهَم من الرواية، أمرا ارتجاليًّا؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءا من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاما مُحَسَّنا بالبديع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البديع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعا لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية؟ أترى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعوّلون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص النثرية كالخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص

الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. ومع ذلك فها هو ذا الجاحظ يقرر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسُّل فى بعضها الآخر كما هو الحال فى خطب الصلح والمعاهدات (الجاحظ/ البيان والتبيين/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ 1/ 289- 290، و 3/ 6)، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجاه هذه المسألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام من واحد مثلى لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجيبا، وناقدا ذواقة للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن بوجد له نظيرٌ مُسَامِت.

هذا، وقد وردتْنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخُطَب قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مَرْثَد الخير فى الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب. ومنها خطب التعزية كتلك التى عزَّتْ بها وفودُ العرب سلامةَ ذا فائش فى موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّب بن عوف وجعادة بن أفلح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفى فى تعزية عمرو بن هند فى ابن أخيه. ثم خطب النكاح كالخُطْبة التى ألقاها أبو طالب فى خِطبَة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التى قالها عامر بن الظَّرِب حين خُطِبت ابنته، ومنها خُطَب

المنافرات كتلك التى تبودلت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريين، ومنها خطب السفارات، كما هو الحال فى مجموعة الخطب التى خطبها بعض رؤساء العرب فى حضرة كسرى فى إيوانه، ومنها خطب الكهان والكواهن التى يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة التى ألقاها ذو الإصبع العَدْوانىّ على ابنه، ونظيرتها التى ألقاها قيس بن زهير على بنى النمر بن قاسط، وكذلك الخطبة الرائعة التى وصَّتْ بها أمامةُ بنتُ الحارث ابنتَها أُمَّ إياس عند زفافها على الحارث بن عمرو مَلِك كِنْدَة... إلخ. وكان العرب يخطبون فى الأسواق والمجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشَزٍ من الأرض وفى الحرب. كما كانوا يخطبون وقوفًا، وعلى الرواحل، أو مسندين ظهورهم إلى الكعبة... وهكذا. وكان من عادتهم فى الخطابة، كما ألمعنا من قبل، لُبْس العمامة والإمساك بالعصا، تلك العادة التى عمل الشعوبيون على التنقص منها والإزراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيّنًا فضل العصا فى صفحات طويلة انثال عليه الكلام فيه انثيالا فى كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيعة بن حُذَار ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزارى وعمرو بن كلثوم التغلبى وحنظلة بن ضرار الضبّىّ.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التى وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثد الخير التى سلفت الإشارة إليها آنفا، وهذا نصها: "إن التخبط وامتطاء الهَجَاج (أى العناد وركوب الرأس)، واستحقاب

اللَّجَاج، سيقفكما على شَفَا هُوّة في تورُّدها بوار الأصيلة، وانقطاع الوسيلة، فتلافَيَا أمركما قبل انتكاث العَهْد، وانحلال العَقْد، وتشتت الألفة، وتباين السُّهْمة (أى القرابة) وأنتما في فسحةٍ رافهة، وقدمٍ واطدة، والمودَّة مُثْرِيَة، والبُقْيَا مُعْرِضَة، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صُيُور أمورهم، فتلافَوُا القُرْحَة قبل تفاقم التَّاي (أى قبل انتشار الفساد) واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سُفِكت الدماء، استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء، تقضَّبَتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء".

ومنها خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادىّ فى سوق عكاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغى أن يعتبر به العاقل: "أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراج، ونجومٌ تَزْهَر، وبحارٌ تَزْخَر، وجبالٌ مُرْساة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهارٌ مُجْرَاة. إن في السماء لَخَبَرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا أم تُركوا فناموا؟ يُقْسِم قُسٌّ بالله قَسَمًا لا إثم فيه إن لله دينا هو أَرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرا". ويُرْوَي أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

"في الذاهبين الأوليـــــــــــــــن من القرون لنا بصائرْ

لما رأيتُ مـــــــواردًا ** للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قومي نحوها** تمضي الأكابـــر والأصــاغرْ

لا يرجــع الماضي إلـــــــــــــــــــــــــيّ
ولا من الباقين غـــــابرْ َ

أيقنتُ أني لا محـــــــــــــــــالة حيث صار القوم صائرْ"

ومنها كذلك خطبة عمرو بن الشريد السُّلَمِىّ أمام كسرى يفتخر بقومه العرب: "أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفى كثيرٍ ثِقْلَة، وفى قليلٍ بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العز، وهذا منطق له ما بعده: شَرُفَ فيه مَنْ شَرُف، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن فى أموالنا مُنْتَقَدًا، وعلى عِزّنا مُعْتَمَدا. إن أَوْرَيْنا نارا أثقبْنا، وإن أَودَ دهرٌ بنا اعتدلْنا، إلا أنا مع هذا لِجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويُسْتَطاب الخَبر".

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام حجاج البيت الحرام: "كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب: أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاما، وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شُعْثًا غُبْرًا من كل بلد. فوَرَبِّ هذه البَنِيَّة لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتُكموه. ألا وإني مخرجٌ من طيِّب مالي وحلاله ما لم يُقْطَع فيه رَحِم، ولم يُؤْخَذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضِعُه. فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخْرِج رجل

منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيِّبًا: لم يؤخذ ظلما، ولم يُقْطَع في رحم، ولم يغتصب".

ومنها هذه الكلمة التى نَفَّرَ فيها نُفَيْلُ بن عبد العُزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبدَ المطلب (جَدَّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن يُنَفِّر بينهما فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأَوْسَم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأَجْزَل صَفَدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِذْوَدا (أقوى لسانا). وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جَلْد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنَفَّرًا. فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جُعِلْتَ حَكمًا".

ومنها وصية ذى الإصبع العَدْوانىّ لابنه عند إشرافه على الموت: "يا بُنَىّ، إن أباك قد فَنِىَ وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصِيك بما إن حفظتَه بلغْتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنى: أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضعْ لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يُسَوِّدوك (أى يجعلوك سيّدا عليهم)، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحْمِ حريمك، وأعزز جارك، وأَعِنْ من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أَجَلاً لا يَعْدُوك، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سُؤْدَدُك".

الفهرست

تمهيـــــــــد 1

صـــــورة المجتمـــع الجـــاهلى فـــى القـــرآن 5

أمثـــــــال العـــــــرب فـــــــى الجاهليـــــــة 65

أسجاع الكهان 111

الخطابـــــــــة عنـــــــــد الجـــــــــاهليين 135